

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثامن والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثامن والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٦

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٢ س ١٩٨٤ - ٢٥٠٠٤

* (قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾)

المفـردات :

(الْأَرْذَلُونَ):جمع الأرذل : وهو الدُّون الخَسيس ، وقد يطلق على الرديُ من كل شيء .

(لَوْ تَشْعُرُونَ) : لو تحسون . (نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر مبين للحق .

التفسير

١١١ ـ (قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) :

قال قوم نوح يردون دعوته : لا نؤمن لأَجلك ولا نصدق بك وقد اتبعك هؤلاء السفلة الأَخساء من الناس ، يقصدون أن الذين اتبعوه أدنى منهم جاهًا ونسبًا ومالا ، كأَهل الحرف الدنيئة والصناعات الوضيعة ومن لا شأْن له من الناس ، فلا يكونون أهلا لاجتماعهم بهم فى شأْن سبقوهم إليه ، ولا أُسوة يقتدون بهم .

وهذا العذر الذى انتحلوه لكفرهم ، برهان على جهلهم وقلة عقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق ضآلة من اتبعه ، فإن الحق فى نفسه صحيح ، سواءٌ اتبعه الأَشراف أم الأَراذل ، على أن سبق الأَسافل إليه برهان على أنهم هم الشرفاءُ العاقلون ، والذين يأْبونه هم الأَراذل الجاهلون ، فمن بَطَّأَ به عمله لم يسرع به نسبُه .

وواقع الحياة والتاريخ شاهد على أن الضعفاء يسبقون إلى الحق لفقدان ما يشغلهم عنه ، وأن يتقاعس عنه الأَغنياءُ وذوو الجاه لكبريائهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

«وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ»[1] والحق أن الفقر ليس من الرذالة فى شىء ؛ قال الشاعر :

قد يدرك المجدَ الفتى ورداؤه خَلَقٌ وجَيْبُ قميصه مرقوعُ

وخسة الصناعة مع تقوى الله ، لا تلحق بصاحبها نقصًا ، قال أبو العتاهية :

وليس على عبد تَقِىٍّ نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم[2]

ومثلها ضَعَةُ النسب فقد قيل :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولمَّا سأل هرقل أبا سفيان بن حرب قائلا : أأشراف الناس اتبعوا محمدًا أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هؤلاء هم أتباع الرسل ، ولما كان وصفهم لمن اتبعوا نوحًا بأنهم أرذلون ، فيه تعريض بأنهم لم يَتَّبعوه إخلاصًا له أو لدينه ، بل ليرفعوا خسَّتهم ، أو ليصيبوا بإيمانهم بعض المنافع ، فلهذا رد عليهم نوح بما حكاه الله بقوله :

١١٢ - (قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : ليس لى علم بما كانوا يعملون بإيمانهم ، وهل عملوه إخلاصًا أو طمعًا فى غرض دنيوى ، وأى شىء يُلزمنى بالبحث عن نية هؤلاء بإيمانهم ، فليست وظيفتى إلَّا اعتبار الظواهر ، وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم ،والشق عن قلوبهم، أما معرفة القلوب والحساب على ما انطوت عليه فهى لله تعالى ، كما قال سبحانه :

١١٣ - (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ) :

ما محاسبتهم على إيمانهم وأعمالهم ، وجزاؤهم عليها إلَّا على ربى ، فهو سبحانه المطلع على البواطن ، العليم بما تخفى الصدور ، المحاسب والمؤاخذ عليها ، لو كنتم من أهل الشعور والإدراك لعلمتم ذلك ، لكنكم لستم كذلك فقلتم ما قلتم .

---

(١) سورة الزخرف : ٢٣

(٢) حاك : معناه نسج ، ومصدره الحياكة ، وحجم أى : امتص الدم من العضو بعد حجمه بالمحجم لدفع الألم عنه ، والحجامة : حرفة الحجام .

١١٤ـ (وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) :

ولست بطارد المؤمنين عنّى لضعفهم تطييبًا لنفوسكم ، وطمعًا فى إيمانكم ، وهو جواب عما أشعر به كلامهم من رغبتهم فى طردهم ، كشرط لإيمانهم به . وقيل : إنهم طلبوا منه طردهم فأجابهم بذلك ، ويشير إلى هذا ما جاء فى سورة هود على لسان نوح : « وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (٢٩ـ٣٠) . وقد فعل مثل ذلك رؤساءُ قريش مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله له : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ »[1] .

فهذا وذاك يدلان على أن شريعة السماء تحرص على المؤمنين ، ولو ضعف شأنهم بين قومهم .

١١٥ـ (إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

فى هذه الآية الكريمة تحديد لوظيفة الرسول ، وهى كالتعليل لما قبلها ، أى : وما أنا إلّا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصى ، سواءٌ أكانوا من الأعزاء أم من الأذلاء ، فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لإرضاء الأغنياء ؟

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٢

(قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾)

المفردات :

(مِنَ الْمَرْجُومِينَ) : من المقتولين رجما بالحجارة . (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) : أى فاحكم بينى وبينهم حكما . (الْفُلْكِ) : بوزن القُفل ، ويطلق على السفينة الواحدة ، وعلى السفن المتعددة بلفظ واحد ، ويعرف المقصود بالقرائن ، قال تعالى فى الجمع : « وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ » أما هنا فهو للواحد ، ولذا وُصفَ بالمشحون ، أى : المملوء ، من شَحَن السفينة – كمنع – : ملأها ، كأشحنها . (الْعَزِيزُ) : الغالب الذى يَقهر وَلَا يُقهَر .

التفسير

١١٦ – (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) :

طال مقام نوح – عليه السلام – بين قومه ، يدعوهم إلى الله – تعالى – ليلا ونهارا وسرًّا وجهارًا ، وكلما كرر الدعوة لم يزدادوا إلَّا عنادًا وإصرارًا ، ثم لجئوا إلى التهديد ، وذلك ما حكاه الله فى هذه الآية .

ومعناها : قال قوم نوح : لئن لم ترجع يا نوح عن دعوتك إيانا إلى دينك لنرجمنك ، يقصدون تهديده بالقتل رجمًا بالحجارة ، ولما استحكم اليأْس عند نوح من إيمانهم ، بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا يدعوهم ، دعا عليهم دعوة استجاب الله لها ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

١١٧، ١١٨ – (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لم يقصد نوح – عليه السلام – إخبار ربه – تعالى – بتكذيب قومه له ، لأنه يعلم أن ربه بهم عليم ، ولكنه يقصد الاعتذار عن دعائه على قومه ببيان سببه .

والمعنى : قال نوح بعد أن صبر على قومه دُهُورًا وهم يجادلون ولا يؤمنون – قال – : يارب إن قومى استمروا على تكذيبى فى دعوتى إياهم إلى الحق وأصروا على ذلك دهوراً ، فاحكم بينى وبينهم حكمًا يهلك به من جحد توحيدك وكذب رسولك ، ونجنى ومن آمن معى من العذاب الذى تنزله بهم ، وهذه حكاية إجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح.

١١٩ ، ١٢٠ – (فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) :

أى : فَأَنجينا نوحًا ومن آمن معه فى السفينة المملوءة بهم ، وبما لا بد منه من الطعام والشراب والحيوان ، وقد حمل فيها من كل زوجين اثنين ، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين على الكفر ، أو الباقين خارج السفينة لكفرهم .

١٢١ – (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

إن فيما ذكره القرآن من نبأ نوح وقومه لبرهانًا وحجة على قدرة الله وغضبه لمحارمه ، وعلى صدق الرسول فى نبوته ، حيث حكى عن نوح ما لا سبيل له إلى علمه سوى الوحى ، وما كان أكثر أمة نوح مؤمنين ، فلذلك أهلكهم وأنجى المؤمنين ، فلماذا لا يعتبر مشركو مكة بقصتهم ، ويرجعوا عن غيهم ، حذرًا من أن يبطش الرب الجبار بهم ، كما بطش بهؤلاء المشركين قبلهم .

١٢٢ – (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك – أيها الرسول – لهو الغالب على ما يريده ، القادر على استئصال أعداء دينه ، فكل شىء دونه مقهور مغلوب لقدرته ، وهو الرحيم المنعم بدقائق النعم ، الكثير الرحمة ، فلذا أخر العقوبة عنهم أحقابًا ودهورًا ، ولم يقطع الرزق عنهم مع قبح فعلهم .

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾)

المفردات :

(رِيعٍ):الريع - بالفتح والكسر - : مسيل الوادى ، وكلُّ مرتفع من الأَرض ، والجبلُ.
(تَعْبَثُونَ):العبث ؛ ما لا فائدة له (مَصَانِعَ) : مآخذ المياه ونحوها ، وخشب يحبس الماء ويمسكه حينًا ، أَو المبانى العظيمة من القصور والحصون ، أَو القُرى ، قال الأَصمعى : العرب تسمى القُرى مصانع ، (تَخْلُدُونَ) : تبقون وتدومون ، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد فهو خالد . (بَطَشْتُمْ) :البطش ؛ الأَخذ بشدة وعنف ، وفعله : بطش يبطش كضرب ونصر ، (جَبَّارِينَ) : عتاة قاهرين قساة القلوب . (أَنْعَامٍ) : جمع نَعَم -

- بفتح العين ، وقد تسكن - : الإبل والبقر والغنم ، ويكثر استعمالها فى الإبل خاصة ، (أَوَعَظْتَ): الوعظ : التذكير بما يلين القلوب . (خُلُقُ الْأَوَّلِينَ) أى : سجيتهم وطبيعتهم .

التفسير

١٢٣ - (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) :

لما قصَّ الله - سبحانه - على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - خبر نوح - عليه السلام - تسلية له عما يلقاه من قومه ، قصَّ عليه أيضًا نبأ هود - عليه السلام - مع قومه ، وزمانُهم بعد قوم نوح - عليه السلام - كما جاء فى سورة الأعراف : (وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً)[1] . وقد كانوا أقوياء الأجساد شديدى البطش ، فى سعة من الأولاد والأموال والبساتين والأنهار والزروع والثمار والخيرات التى لا تحصى ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله - تعالى - وكان أمرهم مع هود - عليه السلام - ما قص الله فى هذه الآية وما بعدها .

والمعنى : كذبت قبيلة عاد جميع المرسلين ، فإن تكذيبهم لرسولهم هود - عليه السلام - يعتبر تكذيبًا لجميع الرسل ، لاتحاد دعوتهم فى أصولها وغاياتها ، وتأنيث الفعل هنا باعتبار أن المراد بعاد (القبيلة) وهو فى الأصل اسم لأبيهم الأقصى ، فأطلق عليهم .

١٢٤-١٢٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

يرى القارئ فى قصص نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب - يرى القارئ - فى هذه القصص الخمس أنها قد بدئت جميعًا بالأمر بالتقوى والطاعة ، وقول الرسول لقومه : إنه لا يسألهم أجرًا على تبليغه الرسالة إليهم ، وتصديرُها بذلك للتنبيه على أن الرسالات السماوية قائمة على الدعاء إلى تقوى الله ومعرفة الحق ، وطاعة الرسل فيما أمروا به أو نهوا عنه جلبًا للثواب ودفعًا للعقاب ، والتنبيه إلى أن الرسل لا يبتغون من وراء تبليغ رسالاتهم أجرًا وجاهًا ، وليعلم القارئ أن الرسل وإن اتفقوا على العقائد وأصول الشرائع ،

(١) من الآية ٦٩

فهذا لا يمنع من حدوث الاختلاف فى بعض فروعها كمًّا أو كيْفًا تبعًا لاختلاف العصور وأهلها .

١٢٨ - (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ) :

أتشيدون بكل مكان عال من أرضكم بناءً شامخًا تتفاخرون به وتعبثون بإقامته دون أن تكونوا فى حاجة إليه ، أفلا فكرتم فى أخراكم فآمنتم بربكم وعملتم لمرضاته ، لأنكم إليه صائرون ، وعلى عقائدكم محاسبون .

١٢٩ - (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) :

المصانع : جمع مصنعة - بفتح النون وضمها - وهى كالحوض يجتمع فيها ماءُ المطر ، وهذا يؤذن بأنها فوق الأرض ، ولعلهم كانوا يتخذون السدود لحبس مياه المطر ، كما فعلت سبأ بإنشائها سد مأرب ، وتطلق المصانع أيضًا على مآجل الماء تحت الأرض[1] ، ولعله يشير إلى المعنى الأول للمصانع قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بَعْدَنا والمصانع

وفسرها بعض اللغويين بالقصور الشاهقة والحصون المنيعة ، ومنه قول الشاعر :

تركنا دورهم منهمْ قفاراً وهدمنا المصانع والبروجا

والمعنى على الوجهين : وتتخذون سدودًا لحبس المياه أوحصونًا منيعة وقصورًا مشيدة مؤملين الخلود فى الدنيا ، كأنكم لا تعرفون الموت ولا تحسُّون بسكان القبور ، والمقصود من ذمهم وتوبيخهم على الوجهين : اهتمامهم بدنياهم ، دون العمل لأُخراهم ، فلو عملوا لهما جميعًا لما عيب عليهم ما صنعوه لدنياهم فى غير سرف ولا مَخِيلة .

١٣٠ - (وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) :

وإذا عاقبتم سواكم : أسرفتم فى البغى عليهم جبارين غاشمين ، تقتلون وتخربون بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العواقب ، وعن الحسن : تبادرون تعجيل العذاب لا تتثبَّتون متفكرين فى العواقب ، وقال ابن كثير : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت .

(١) وبه قال قتادة .

١٣١ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) :

فخافوا الله واتركوا هذه الأفعال ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه ؛ فإنه أنفع لكم .

١٣٢-١٣٤ - (وَاتَّقُوا الَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) .

أى : واحذروا غضب الله الذى بسط لكم يد إنعامه ، بالذى تعلمونه من أنواع النعماء وأصناف الآلاء ، أمدكم بالإبل والبقر والغنم ، وأمدكم بالبنين لتكثروابهم ، وليعاونوكم فى حفظ أنعامكم وتنميتها ، وليحملوا عنكم بعض أعبائكم ،وأمدكم ببساتين مثمرات ، وعيون بالماء جاريات .

قال الزمخشرى : بالغ فى تنبيههم على نعم الله ،حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم ، وبذلك أيقظهم من سِنَة غفلتهم عنها ، ونبههم إلى أنه تعالى كما قدر أن يتفضل عليهم بهذه النعم ، فهو قادر على الثواب والعقاب ، فعليهم أن يتقوه . انتهى بتصرف .

١٣٥ - (إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

إنى أخاف عليكم إن لم تقوموا بشكر هذه النعم عذاب يوم عظيم فى الدنيا والآخرة ، فإن كفران النعم موجب للعقاب بإزالتها أو تقليلها ، كما أن شكرها سبب فى زيادتها ، قال تعالى : « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ »[1] .

وهكذا دعاهم نبيهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، وبين لهم أنه كما قدر على أن يعطيهم هذه النعم متفضلا ، فهوقادر على سلبها عادلا ، وأنه بذلك تعرف قدرته على ثوابهم إن أحسنوا وعقابهم إن أساءوا ، ولم ينفعهم وعظه وتذكيره كما حكاه بقوله :

١٣٦ - (سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ) :

قالوا استخفافًا وعدم مبالاة بما يقول : سواءٌ لدينا أبالغت فى وعظنا وتذكيرنا أم لم تكن من الواعظين ، فإننا لن نرعوى عما نحن عليه .

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٧

ولم يقولوا : أوعظت أم لم تعظ - مع أنه أخْصَرُ - للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه ؛ لأن المراد : سواءٌ علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن من أهله ومباشريه أصلا .

١٣٧ ، ١٣٨ - (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

أى : ما هذا الذى جئتنا به إلَّا خلق الأولين وعادتهم ، إذ كانوا يلفقون مثله ويسطرونه كما قال مشركو مكة للنبى - صلى الله عليه وسلم - : « وَقَالُوٓا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

أو ما هذا الذى نحن عليه إلَّا خلق الأولين - أى : دينهم وعادتهم - ونحن بهم مقتدون ، كما قال مثله غيرهم : « إِنَّا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »[1] فنحن تابعون لهم سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، وما نحن بمعذبين فلا بعث ولا جزاء .

١٣٩ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : فاستمروا على تكذيبهم وعنادهم ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية شديدة البرد ، فكان سَببُ إهلاكهم من جنس جبروتهم ، إن فى ذلك الذى أنزله الله بعاد جزاء تكذيبهم لبرهانًا على قدرة الله ، وما كان أكثر الذين تتلو عليهم ، يامحمد - نبأ عاد مؤمنين برسالتك مع قيام الحجة عليهم .

١٤٠ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو القاهر للجبارين ، الرحيم بالمؤمنين .

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ۖ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾)

المفردات :

(ثَمُودُ) : اسم عربى عند الأكثرين ، وعدم صرفه لأنه اسم قبيلة ، وهو فعول من الثَّمْد وهو الماء القليل . (طَلْعُهَا هَضِيمٌ) :الطلع ؛ أول ما يبدو من ثمرة النخل ، كنَصْل السيف ، فى جوفه شماريخ القنو ، والهَضِيم : اللطيف اللين ، أو المنضم بعضه إلى بعض ،

سأل نافع بن الأزرق ابن عباس –رضي الله عنهما– عن معنى (هضيم) فقال: هو المنضم بعضه إلى بعض، فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول امرئ القيس:

دارٌ لبيضاء العوارض طَفْلَةٌ   مهضومةُ الكَشْحيْن ريَّا المعْصَم

وقيل: المراد من الطلع الهضيم: الطَّيِّب اللين النضيج من الرطب. (تَنْحِتُونَ): النحت؛ البَرْيُ؛ أى يبرون الأحجار، والنُّحاتةُ: البُراية. (فَارِهِينَ): ماهرين حاذقين وفعله: فَرُهَ ككرُم، فراهَة وفراهية، أما فَرِهَ بوزن فرح، فمعناه: أشر وبطر. (الْمُسَحَّرِينَ): السَّحْر – بسكون الحاء ويحرك –: الرئة، والسِّحر – بكسر السين –: كل ما لطف مأخذه ودقَّ، وفعله كمنع. (شِرْبٌ): الشرب – بالكسر –: الماء، والنصيب منه، والمورد، ووقت الشرب. (فَعَقَرُوهَا): فذبحوها، والعقر: الذبح والجرح، وعَقَر النخلة: قَطَع رأسها.

التفسير

١٤١–١٤٥ – (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ):

هذا إخبار من الله عن ثمود قوم صالح – عليه السلام – بأنهم كذبوا المرسلين بتكذيب نبيهم وأخيهم صالح حين دعاهم إلى تقوى الله فإن المرسلين جميعًا جاءوا برسالة موحدة، هى الدعوة إلى التوحيد والإيمان بيوم النشر، وتقوى الله، فمن كذب أحدهم فقد كذب سواه ضمنًا.

ومساكن ثمود بالحِجْر، بين وادى القرى وبلاد الشام، وقد مر النبى – صلى الله عليه وسلم – بها فى طريقه إلى غزوة تبوك.

والمعنى: كذبت قبيلة ثمود المرسلين بتكذيبهم نبيهم صالحًا، مع أنه أخوهم، ومن بينهم فهم يعرفون صدقه – كذبوه – حين قال لهم: ألا تتقون عقاب الله فتؤمنوا به إلهًا واحدًا لا رب سواه، إنى لكم رسول من الله أمين على رسالته، وأمين فى أمره كله،

فاتقوا الله وأطيعونى فى دعوتكم إلى الحق ، وما أطلب منكم على ذلك أجرًا وثوابًا ، فما أجرى إلّا على رب العالمين ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

١٤٦-١٤٩ - (أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ . فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ) :

إنكار ونفى لأن يتركوا مخلدين فى نعيمهم لا يزالون عنه ، أو تذكير بالنقمة إذا تخلى الله عنهم ، فقضى على ما يتنعمون به من الجنات وما هم فيه من الأمن والدعة .

والمعنى : أتظنون أن تتركوا فى دياركم هذه آمنين فى حدائق مثمرات ، وعيون جاريات بالماء الفرات ، وزروع يانعات ، ونخل ثمرها لين نضيج ، وتتخذون من الجبال بيوتًا حاذقين فى نحتها منها ، متفاخرين بها ، أتتركون فى ذلك آمنين من نقم الله ، وأنتم مقيمون على الكفر والمعاصى ؟ !

١٥٠ - (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى : فأقبلوا على تقوى الله وطاعتى فيما آمركم به عن الله ؛ فإن ذلك هو الذى يعود نفعه عليكم فى دنياكم وأخراكم ، فبه تبقى النعم ، وتبعد النقم ، وتحسن العاقبة يوم يقوم الناس لرب العالمين .

١٥١ ، ١٥٢ - (وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) :

ولا تطيعوا أمرزعمائكم الذين أسرفوا على أنفسهم بالترف واتباع الشهوات والإغراق فى الكفر والضلال ، الذين يعيثون فى الأرض فسادًا ، ولا يصلحون فى شئون البلاد والعباد .

١٥٣ - (قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) :

قال قوم صالح ردًّا على وعظه ونصائحه : ما أنت إلّا من الذين سُحروا كثيرًا حتى غلب السحر على عقولهم - وبه قال مجاهد وقتادة . أو من المخلوقين الذين لهم سَحْر ، أى : رئة ، يَعْنُون أنه من بنى آدم مثلهم ولا فضل له عليهم ، وبه قال ابن عباس ، واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا مِمَّ نحن ؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المُسَحَّر

١٥٤ ـ (مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

ما أنت إلَّا إنسان تماثلنا فى البشرية ، فكيف أوحى إليك دوننا ، فَأْتِ بحجة على صدقك فيما تدعيه من الرسالة عن الله ، إن كنت فيما تدعيه من جملة الصادقين فيما يقولون .

١٥٥ ـ (قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

قال صالح لقومه حينما أعطاه الله الناقة معجزة له : هذه ناقة الله أخرجها لكم آية ، لها ماءُ يوم معلوم ، ولكم ماءُ يوم معلوم ، فإذا كان يوم مائها فلا تشركوها فيه ، وإذا كان يوم مائكم فلا تشرككم فيه .

وقد كانت تشرب الماء كله فى يومها أول النهار ، وتسقيهم من لبنها آخر النهار ، أما فى يومهم فكانت تترك الماء كله لأنفسهم ومواشيهم .

١٥٦ ـ (وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

ولا تلحقوا بها أذى ، فيهلككم عذاب يوم عظيم ، ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من وصف العذاب به .

وبعد هذا التحذير مكثت الناقة حينًا ترد الماء وتأكل من أوراق الشجر والعشب فى يومها ، وتمنحهم من لبنها ما يكفيهم شربًا وريًّا ، دون أن تَعْدُوَ عليهم ، ومكثوا هم مقتصرين على شربهم فى يومهم ، فلما طال عليهم الأمد ، ضاقوا بمنعهم عن الماء فى يومها ، فتمالئوا على عقرها .

١٥٧ ـ (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) :

فذبحوا الناقة مخالفين بذلك ما اتفقوا عليه مع صالح ـ عليه السلام ـ فأصبحوا على ما فعلوا نادمين خوفًا من حلول العذاب بهم ، لا توبة من ذنبهم ، أو توبة منه عند معاينتهم لمبادئ العذاب ، حيث لا ينفع المتاب .

١٥٨ ـ (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

فأهلكهم العذاب الذى كان نبيهم صالح قد توعدهم به إذا مسوها بسوء ، إن فى قصتهم لدلالة على قدرة الله على إهلاك الكافرين المعاندين لرسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان أكثر ثمود مؤمنين .

قال البيضاوى : وفى ذلك إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب : اهـ .

١٥٩ ـ (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك ـ أيها الرسول ـ لهو الغالب فلا يستطيع الفكاك من عقابه الجبارون ، الرحيم فلا ييئس من رحمته التائبون .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾)

المفردات :

(عَادُونَ) : جمع عادٍ ، وهو المتعدى فى ظلمه بتجاوز الحد فيه .

(الْقَالِينَ) : جمع قَالٍ ، من قلاه ، كرَمَاهُ ، أو من قَلِيَه ، كرَضِيَهُ ، قِلًى وقَلاءً :

أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه ، أو قلاه فى الهجر ، وقَلِيَهُ فى البغض .

(الْغَابِرِينَ) : الباقين ، من غبر بالمكان، غبورًا : أقام به ، وقد يستعمل الغبور بمعنى المضى والذهاب ، فهى فى الشىء وضده . (دَمَّرْنَا) : الدمور والدمار والتدمير : الإهلاك .

التفسير

١٦٠-١٦٤- (كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

لما قص الله تعالى على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - خبر موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح - عليهم السلام - تسلية له عما يلقاه من عنت قومه ، قص عليه نبأ لوط مع قومه وتكذيبهم له وإيذاءهم إياه ، ولقد كان قوم لوط من الشر بمكان خطير ، كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، ولا يستحون أنْ يأتوا فى ناديهم هذا المنكر القبيح ، وقد نصحهم لوط فأمرهم بتقوى الله وطاعته ، وبين لهم قولا وعملا أنه لا يسألهم على تلك النصائح أجرًا ، وإنما يبتغى الأجر من رب العالمين ، وقد سبق الكلام على مثل هذه الآيات فى القصص السابقة .

١٦٥ - (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) :

قال لوط لقومه على سبيل التوبيخ والإنكار : أتأتون الفاحشة مع الذكران من بنى آدم ، فلا حياء عندكم يمنعكم عن قريب أو غريب ، كأن النساء أعوزتكم ؟ !

١٦٦ - (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ) :

وتتركون ما خلق الله لاستمتاعكم من أزواجكم الحلائل ، قال الزمخشرى :

(مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) :تبيين لما خلق الله ، أو للتبعيض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منهن ، فكأنهم كانوا يفعلون مِثْل ذلك بنسائهم .

(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) : بل أنتم قوم معتدون مجاوزون الحد فى جميع المعاصى ، وهذا من أفحشها ، أو متجاوزون حد الشهوة ، فزدتم فيها على سائر الناس وعلى الحيوان .

١٦٧ - (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) :

قالوا : لئن لم تنته يا لوط عن توبيخنا وتقبيح أمرنا ، أو عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوتنا إلى الإيمان بها ، وتترك ما أنكرته من أمرنا ، لتكونن من جملة من أخرجناهم من بين أظهرنا وطردناهم من بلدنا ونفيناهم ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال ، من تعنيف واحتباس مال ، وغير ذلك مما يفعله الظالمون إذا نفوا بعض من يغضبون عليهم ، كما كان أهل مكة يفعلون بمن يريد الهجرة إلى المدينة .

١٦٨ - (قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) :

قال لوط - عليه السلام - مخاطبًا قومه : إنى لعملكم هذا من المبغضين غاية البغض ، ولم يقل : إنى لعملكم قال بالإفراد ، للإيذان بأنه كان يوجد من كرام الناس من يبغض حالهم ، ثم أعرض عنهم بعد أن بالغ فى نهيهم ولجأ إلى الله تعالى قائلا :

١٦٩ - (رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ) :

دعا لوط ربه أن ينقذه وأهله مما يعمل هؤلاء الجاهلون - : أى من عقوبة أعمالهم - وشؤمها .

١٧٠ ، ١٧١ - (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ) :

فاستجاب الله دعاءه ونجاه وأهله الذين اتبعوا دعوته بإخراجهم من بيوتهم ليلا قبل حلول العذاب بالمكذبين ، إلَّا عجوزًا هى امرأة لوط كانت فى الغابرين ، أى : مقدرًا كونها فى الباقين فى العذاب ، لأنها كانت كافرة بربها ، منافقة لزوجها ، والتعبير عنها بالعجوز ، للإشارة إلى أنها بقيت فى الكفر إلى أن صارت عجوزًا .

١٧٢ -(ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ) : أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

١٧٣ -(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) :

أى وأنزل الله على شرار قوم لوط مطرًا من الحجارة فأهلكتهم ، وفى ذلك يقول الله

فى سورة هود : « فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ . . . »[1] .

« فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ » مَطَرُهُمْ ، إذ نزل بأشد أنواع الهلاك والدمار ، ولا شك أنهم جديرون بذلك ، فقد ابتدعوا عادة مستهجنة تهبط بالرجولة إلى الحضيض وتصيب ذويها بأمراض جسمية ونفسية وخلقية ، من تخنث وميوعة ، وتخالف ناموس الحياة الذى شرعه الله للتوالد والتكاثر .

وعقاب اللياط فى الشريعة الإسلامية القتل ، والخلاف إنما هو فى طريقته ، ومن عجب أن بعض الأمم التى تدعى الحضارة فى البلاد الأوربية اعترفت بالشذوذ الجنسى (اللياط) رسميا ، ولايستحون من إتيانه سرا وعلانية .

١٧٤ ـ (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

إن فى ذلك العقاب الذى نزل بقوم لوط لدليلا على تمام قدرة الله ، وماكان أكثر هذه الأمة مؤمنين ، فلذلك لحق بهم مالحق .

١٧٥ ـ (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك ـ أيها الرسول ـ لهو الغالب على كل شىء المتصف بالرحمة ، فيعاقب المجرمين المصرين ، ويثيب التائبين المصلحين .

(كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾)

---

(١) الآيتان : ٨٢ ، ٨٣

التفسير

١٧٦ - (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) :

الأيكة : الغيضة التى تنبت ناعم الشجر ، وهى غيضة بقرب مَدْيَنَ ، يسكنها طائفة من المشركين ، بعث الله لهم شعيبًا - عليه السلام - وكان أجنبيًّا منهم ، ولذا قيل : « إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ » ولم يقل : أخوهم . وقد أهلكوا بعذاب يوم الظلة ، وأهلك أهل مدين بالصيحة والرجفة .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا : (أخوهم شعيب) ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة - وكانت شجرًا ملتفًا -[1]

وقيل : شجرة معينة منها - فقطع نسب الأخوة بينهم وبينه للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبًا . وهذا هو الصحيح ، فقد وصفوا بتطفيف الكيل والميزان الذى وصف به أهل مدين ، ونهوا عن ذلك ، مما يدل على أنهم جميعًا أمة واحدة . وذلك كقوله تعالى فى سورة هود : « يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » الآية ٨٥

١٧٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ) : ألا تخافون عاقبة ما تفعلون من كفر وتطفيف ، وعلّل أمرهم بالتقوى بقوله :

١٧٨ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) :

إنى مرسل لهدايتكم وإرشادكم ، أمين على رسالة ربى إليكم .

١٧٩ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) : فاحذروا عقوبة الله وأطيعونى باتباع أوامر الله والبعد عما يغضبه .

١٨٠ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

وما أطلب على تبليغ الرسالة لكم أجرًا ، فما أجرى إلا على رب العالمين .

(١) من السدر والأراك ونحوهما .

* (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾)

المفردات :

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) : أى من الذين ينقصون الكيل والوزن . يقال : أخسر الميزان إخسارًا : نقص الوزن ، وخَسَره خسْرًا من باب ضرب لغة فيه .

(بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى الميزان السوى ، والقُسطاس - بضم القاف وكسرها - : الميزان . قيل : هو عربى مأخوذ من القِسْط وهو العدل ، وقيل : هو رومى معرب .

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) : أى ولا تنقصوها ، أو : ولا تعيبوها . يقال : بخسه بخسًا من باب نفع : نقصه أو عابه .

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى وَلَا تفسدوا فيها مبالغين فى الإفساد ، والعُثُوّ : الإفساد أو أشده ، ويقال : عثا يعثو - من باب قال يقول - وَعَثِيَ يعثَى - من باب تَعبَ يَتْعَبُ - أى : أفسد ، فهو عاثٍ .

(خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) : أى أوجدكم وأوجد الخليفة من الناس السابقين لهم .

التفسير

١٨١ ، ١٨٢ – (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) :

نزلت هذه الآية وما بعدها حكاية لما وجهه نبى الله شعيب إلى قومه أصحاب الأيكة وهم أهل مدين على الصحيح – من الأمر بإيفاء المكيال والميزان والنهى عن التطفيف فيهما – كما مر بيانه كان قد شاع فيهم وانتشر بينهم سوء المعاملة فى الأخذ والإعطاء ، فكانوا إذا اكتالوا من الناس للشراء ونحوه يأخذون مكيلهم وافيًا وافرًا، وإذا اكتالوا لهم للبيع ونحوه ينقصون مكيلهم ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة : « أَوْفُوا الْكَيْلَ . . . » : أى إذا دفعتم إلى الناس الكيل فأتموا الكيل لهم ولا تعطوه ناقصًا لأنكم ملزمون أن تعطوه كما تأخذون كاملًا وافيًا بلا تفرقة بين الأخذ والإعطاء إحقاقا لشريعة العدل التى شرعها الله فى المعاملة بين عباده .

والكيل للناس إما واف وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهى عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، وتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن .

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى يجب عليكم التزام العدل فى الموزونات أخذا وإعطاء ، وذلك بأن تزنوا بالميزان السوى حيث لا حيف فيه ولا ظلم .

والأمر بوفاء الوزن وإتمامه يشير ضمنًا إلى النهى عن النقص فيه دون النهى عن الزيادة ، ولم يذكر النهى هنا اكتفاء بذكره صريحًا فى الآية السابقة ، لاتحاد الغرض فى المأمور به هنا والمنهى عنه فى الآية السابقة ، وهو الأمانة فى الكيل والميزان ، وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – : أن معنى « وَزِنُوا . . . » الآية وعدِّلوا أموركم كلها بميزان العدل الذى جعله الله تعالى لعباده ، ويدخل فيه طلب العدل فى الميزان المعروف دخولًا أوليا حتى يستقيم أمرهم .

١٨٣ – (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

أى ولا تنقصوا الناس شيئا من حقوقهم ، أى حق كان ، كبر أو صغر ، هان أو عظم ،

وهذا تعميم بعد تخصيص لبعض المراد بالذكر فى الآيتين السابقتين لغاية انهماكهم فيه واقترافهم لمساوئه بيعا وشراء ليكمل لهم بهذا التعميم فى النهى البعد عن شريعة الله التى شرعها لهم فى كل شأن من شئونهم .

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى ولا تبالغوا فى الإفساد فيها بقطع الطريق والقتل والسلب ، وإهلاك الزرع ، وكانوا يفعلون ذلك ، فنهوا عنه بالتنصيص رَدْعا لهم ، وتقبيحًا لصنيعهم السيء الذى ينفر منه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

١٨٤ ـ (وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) :

يخوفهم شعيب ـ عليه السلام ـ بأس الله ـ تعالى ـ الذى أوجدهم ، أوجد الجبلة : أى الخليقة الأولين ، ويراد بها العدد الكثير من الأمم الماضية فى الأزمان المتعاقبة كما يشير إلى ذلك قوله ـ سبحانه وتعالى ـ : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا »[1] .

والمعنى : اتقوا الله ـ سبحانه ـ فهو بعظيم قدرته وواسع سلطانه أوجدكم من عدم ، وأوجد أممًا تقدمت عليكم كثيرة العدد ، ومع ما هم عليه من كثرة وعُتُوّ لم يعجزوه جل شأنه بل أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وفى ذلك الدليل الساطع على تفرده بالألوهية والدّافع القوى على عبادته وتقواه ، وهو سبحانه عزيز ذو انتقام ممن استحب العمى على الهدى ، واستمرأ الضلال ، واستهواه الإعراض والتكذيب لدعوة الأنبياء والمرسلين .

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة يس .

(قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾)

المفردات :

(قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) : الذين سحروا كثيرًا حتى غلب السحر عليهم ، أو من البشر الذين لهم سَحْرٌ ، والسَّحْرُ : الخرطوم والرئة ، وسحر بهذا المعنى على وزن فَلْس وسبب ، وقُفْلٍ .

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ) : أى قطعا من السحاب ، وقرئ : « كِسْفا » - بسكون السين - ومع فتح السين وسكونها فهى جمع كِسْفة ، كقِطْعة ، وقال الأخفش : من قرأ كِسْفا - بسكون السين - جعله واحدا ، ومن قرأ كِسَفا - بفتحها - جعله جمعا .

(عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) : الظلة سحابة بَدَت لهم أرادوا أن يستظلوا بها ، فكانت عذابا لهم ، وسيجئ شرح ذلك .

التفسير

١٨٥ ، ١٨٦ - (قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) :

أجابوا بذلك شعيبًا - عليه السلام - مبالغين فى تكذيبه ، حيث جمعوا له بين غلبة

السحر على عقله حتى اضطرب ، وهو مناف للرسالة ، وبين البشرية التى يرونها منافية لها كذلك ، للإيذان بأن اجتماعهما ينافى الرسالة أشد المنافاة . (وإن نظنك لمن الكاذبين) أى : وإن شأنك يجعلنا نظنك من الكاذبين فيما تدعيه ، ومرادهم أنه - عليه السلام ، وحاشاه - من الراسخين فى الكذب المعتادين له ، فلا يصدقونه فى دعوى الرسالة ، أو فيها وفى دعوى نزول العذاب بهم الذى يشعر به الأمر بالتقوى فى قوله - سبحانه - فيما سبق : « وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ . . . » الآية . فإنه يأمرهم بأن يقوا أنفسهم من عذابه .

وظاهر حالهم أنهم أرادوا من ظنهم كذبه فى قولهم : « وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » الجزم بوقوعه منه ؛ لأنه أصبح له عادة وطبيعة فى زعمهم ، ولهذا أكدوا الظن بلام التأكيد فى قولهم : « لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » . واستعمال الظن بمعنى اليقين والعلم لغوىٌّ وقد جاء به القرآن فى مواطن ، كقوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[1] .

١٨٧ - (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

حكى الله فى الآية السابقة اتهامهم لشعيب - عليه السلام - بالكذب حسبما تخيلته نفوسهم المريضة ، وجاءت هذه الآية تحكى ما بنوه على هذا الاتهام الكاذب .

والمعنى : إن كنت صادقًا فى أنك نبى ، فادع الله أن ينزل علينا قطعًا من السحاب وأجزاء منه عقابًا لنا على تكذيبك . قال السدى : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ » أى : عذابًا واقعًا عليهم من جهة السماء ، وهذا شبيه بما قالته قريش للنبى - صلى الله عليه وسلم - : « وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا » إلى أن قالوا : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا »[2] ، وقولهم : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[3] .

ومن هذا يتضح أن جواب المكذبين لرسلهم متقارب فى المعنى .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٤٩

(٢) ٩٠ ، ٩١ من سورة الإسراء .

(٣) الآية : ٣٢ من سورة الأنفال .

١٨٨ ـ (قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

تهديد لهم بتفويضه أمرهم إلى الله ، أى قال لهم : ربى أعلم بكم ، وبما تقترفون من الكفر والمعاصى ، وبما تسرون وتعلنون من قول وعمل ، وبما تستحقون من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لامحالة ، أما أنا فرسول ، وليس لى أمر العذاب الذى طلبتم أن ينزل بكم .

١٨٩ ـ (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى فلما أقاموا على تكذيب نبيهم شعيب ـ عليه السلام ـ وأصروا على هذا التكذيب مرة بعد مرة جعل الله عقابهم من جنس ما اقترحوه بإسقاط الكسف من السماء عليهم .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما عن ابن عباس أن الله ـ تعالى ـ بعث عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم فخرجوا منها هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ـ وهى الظلة ـ فوجدوا لها بردًا ولذة ، فنادى بعضهم بعضًا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم نارًا فأكلتهم جميعًا .

وكان هذا اليوم من أشد أيام الدنيا عذابا لما وقع فيه من الهول المذهل ، والداهية التامة التى لايقادَرُ قدرها ، وفى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفس الظلة إيذان بأن لهم عذابًا آخر غير عذاب الظلة ، ترك بيانه تهويلًا لشأنه .

١٩٠ ـ (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى إن فى هذه القصة وما سبقها من قصص الأنبياء السابقين لعظة وعبرة لمن له قلب واع ، وفكر مستنير ، وما كان أكثر قريش مؤمنين .

وقصة شعيب ـ عليه السلام ـ مع قومه هى آخر القصص السبع التى أوحيت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لصرفه عن الحرص البالغ على إسلام قريش ، وقطع رجائه بشأنه لإعراضهم عن الحق واستمساكهم بالباطل ، وإلى ذلك يشير مضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة : « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته ـ تعالى ـ بموجب رحمته الواسعة يدعوهم إلى ترك العناد

بعدما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة ، وفيها من الدواعى إلى الإيمان ، والزواجر عن الكفر والطغيان ما يصرفهم عما هم عليه ، ولكنهم أعرضوا عن التأمل فيها واستمروا على تكذيبهم : « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » كأنهم لم يسمعوا شيئًا منها يردعهم عن ذلك أصلًا ويحبب إليهم الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويزينه فى قلوبهم ، ومن كان أمرهم على ذلك فلا تبالغ فى الحرص على إيمانهم .

وقيل : المراد بالضمير فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » قوم شعيب - عليه السلام - نُقل أنه لم يؤمن به سوى تسعمائة نفر ، ذكر ذلك القرطبى فى تفسيره ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٩١ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

فهو - سبحانه - العزيز فى انتقامه من الكفار ، الرحيم فى ثوابه بعباده المؤمنين .

(وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾)

المفردات :

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) : هو جبريل - عليه السلام - فإنه أمين وحيه - تعالى - إلى أنبيائه . (عَلَى قَلْبِكَ) : لتحفظه . (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) : أى بلغة عربية واضحة المعنى ظاهرة المدلول . (لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) : والزُّبُرُ جمع زَبُور ، كرسول ، وهو الكتاب ، والمعنى : أن ذكره ثابت فى جميع الكتب السماوية .

التفسير

١٩٢ - ١٩٥ - (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) :

فى هذه الآيات تنويه بالقرآن العظيم الذى تقدم ذكره أول السورة ، وَرَدٌّ لما قاله المشركون فيه .

أى : وإن هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه منزل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ .

نزل به (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) : أى يتلوه الروح الأمين على سمعك فيعيه قلبك حفظًا ، وفهمًا ، وثباتًا ، لتكون به من جملة الرسل الذين ينذرون قومهم ، فهو حجتك وآيتك ، وقد نزل به بلسان عربى واضح ، ليقطع أعذار قومك ويلزمهم الحجة ، ويحملهم على المحجة[1] .

ولو نزل بلسان أعجمى لتجافوا عنه ، ولقالوا : ما نصنع بما لم نفهمه ، ولم ندرك كنهه ، ولتعذر عليك الإنذار ، حيث يكون بذلك نازلًا على سمعك لا على قلبك ، فتسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ، ولا تعى مراميها .

وفى حكاية القرآن الكريم لهذه القصص التى لا سبيل لنبى أمى لم يقرأ ولم يكتب أن يعلمها ، دليل واضح على صدق نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا سبيل له إلى علمها إلا الوحى الذى نزل به الروح الأمين .

وقد سجل الله هذا المعنى فى قوله ـ تعالى ـ : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »[2] .

١٩٦ ـ (وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) :

أى : وإن القرآن الكريم لمذكورٌ فى كتب الأنبياء السابقين ، وقيل معناه : إنه لفى الكتب المتقدمة باعتبار العقائد والأحكام ؛ فإن التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات ، وكثيرًا من المواعظ والقصص والأحكام والأخلاق مسطور فى الكتب السابقة .

---

(١) أى : الطريق .

(٢) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

أو : وإنَّ محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تخل من ذكره كتب الأولين كما قال ـ تعالى ـ : « الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ »[١] ، وفى قوله ـ تعالى ـ : « يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ »[٢] .

(أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً) : الآية: العلامة الواضحة .

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) : جمع أعجم أى : على رجل لا يفصح ولا يبين ، وإن كان عربيًّا ، وقرأ الحسن (على بعض الأعجميين): جمع أعجمىّ بياء النسب ، والأعجم والأعجمى :غير الفصيح وإن كان عربيًّا ،والعجمى ما كان من جنس العجم وإن كان فصيحًا ، وأجاز الفراءُ أن يقال : رجل عجمىّ بمعنى أعجمىّ[٣] .

(كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) : أدخلنا القرآن فى قلوب مشركى مكة

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦ من سورة الصف .

(٣) انظر القرطبى .

إدخالًا مثل ذلك فى التكذيب عنادا ومكابرة ، والفعل من باب نصر ، والسَّلْكُ : إدخال الشىء فى الشىء .

(هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) : أى مؤخرون وممهلون ؟ يطلبون الرجعة هناك فلا يجابون .

التفسـير

١٩٧ ـ (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) :

الهمزة للإنكار والنفى ، كأنه قيل : أغفلوا ولم يكن لهم علامة على صدق القرآن أن يعرفه علماءُ بنى إسرائيل بنعوته فى كتبهم المذكورة فذلك آية واضحة على أنه تنزيل رب العالمين ، وإلى علم علماء بنى إسرائيل به يشير قوله ـ تعالى ـ : « وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوٓا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ »[1] والمراد من علماء بنى إسرائيل : العدول منهم ، وهم من أسلموا ، قال مجاهد : يعنى عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما ممن ، ذكره القرطبى ، وذلك أن جماعة منهم أسلموا ، ونصوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وهذا يقتضى أن الآية مدنية ، وعن قتادة أن الضمير فى (أَن يَعْلَمَهُ) للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر الثعالبى عن ابن عباس أن أحبار يثرب ، بعث إليهم أهل مكة يسألونهم عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : هذا زمانه ، وذكروا المواضع التى ذكر فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوراة ، وهذا ما يقتضيه كون السورة كلها مكية .

١٩٨ ، ١٩٩ ـ (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) :

أخبر الله عن شدة كفر قريش ، وقوة شكيمتهم فى المكابرة ، وعنادهم للقرآن العظيم . فقال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ . . . » الآية .

أى : نحن نزلنا القرآن على رجل عربى مبين ، ففهموه وعرفوا فصاحته ، وأنه معجز ، وانضم إلى هذا شهادة علماء بنى إسرائيل على أن كتبهم ذكرت صفته وقصصه ، وصح

---

(١) القصص ، الآية : ٥٣

بذلك أن قصص الأنبياء فى القرآن من عند الله ، وليست بأساطير كما زعموا ، ومع هذا لم يؤمنوا به ، وقالوا : إنه سحر أو شعر ومن افتراء محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ولو نزلناه عربيا على أعجمى لا يعرف العربية ، ونطق به نصيحًا ، ما آمنوا بأن هذا القرآن من عند الله مع أن هذا الأعجمى لا يتوهم أحد أنه يستطيع الإتيان بمثله ، ولا قراءته بفصاحته ؛ لأنهم قوم معاندون يتمسكون بدين آبائهم ، ويقتفون أثرهم كما قال تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ »[1] .

وقد وصف الله عنادهم بقوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا : إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ »[2] .

٢٠٠-٢٠٣ - (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) :

المراد من المجرمين : مشركو مكة ، وقد يراد من المجرمين : جنس المجرمين . فيدخل فيه مشركو مكة دخولًا أوليا .

والمعنى : مثل هذه الحال من الإصرار على التكذيب والكفر بالقرآن سلكنا القرآن وأدخلناه فى قلوب المجرمين ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحود ومكابرة كما قال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ »[3] ، وقوله سبحانه وتعالى : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى : لا يزالون على الكفر حتى يبصروا العذاب الشديد الملجىء إلى الإيمان به .

أو المراد : أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ، ففهموا معانيه ، وعرفوا فصاحته ، وأنه خارج عن قدرة البشر من حيث النظم المعجز ، والإخبار عن الغيب ، واتفاق علماء بنى إسرائيل على أن كتبهم المنزلة قبله تضمنت البشارة بإنزاله ، ورسالة من أنزل عليه بذكر أوصافه.

---

(١) من الآية ٢٣ سورة الزخرف . (٢) سورة الحجر : ١٤-١٥
(٣) الآية ٧ سورة الأنعام .

أدخلنا القرآن مثل ذلك الإدخال ، لكنهم لم يؤمنوا به، فقوله تعالى : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » على هذا الرأى استئناف مسوق لبيان حالهم من أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به ، بل يستمرون على ما هم عليه حتى يعاينوا العذاب المكره لهم على الإيمان فجأة من غير توقع وانتظار وهم لا يشعرون بإتيانه .

وقرئ : فتأتيهم بالتاء، والمراد : فتأتيهم الساعة ، وأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها عليهم ، ولكثرة ما فى القرآن من ذكرها .

وقال رجل للحسن وقد قرأ (فتأتيهم) : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب فانتهره وقال : إنما الساعة تأتيهم بغتة . ا هـ من تفسير القرطبى وغيره .

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) : أى فيتمنون حين يرون العذاب ، التأخيرَ والإمهالَ ليعملوا بطاعة الله تداركًا لما فاتهم تفريطًا وإهمالًا فلا يجابون إلى ما أملوه مما يملأ نفوسهم حسرة وحزنًا ، كما قال الله تعالى : « وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ »[1] .

وهذه الآيات تصوير وتمثيل لحال مشركى مكة الذين ماتوا على الكفر قبل فتح مكة سنة ثمان من الهجرة .

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾)

(١) آية ٤٤ من سورة إبراهيم .

المفردات :

(إن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) : أى إن أخرناهم سنين وجعلناهم ينتفعون بالمتاع ، ويطلق على كل ما ينتفع به من مأكل ومشرب وأثاث ونحوها . (مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) : من العذاب ؛ والوعد: مع المفعول يستعمل فى الخير وفى الشر ، فإذا أسقطوا المفعول وهو الخير والشر قالوا فى الخير: الوعد والعدة ، وفى الشر: الإيعاد والوعيد ، فإذا جاءوا بالباء فى الشر جاءوا بالهمز فقالوا : أوعده بالسجن . ا هـ: مختار الصحاح بتصرف .

(إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ) : أى مخوفون من العقاب .

(وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) : أى واضعين الشىء فى غير موضعه حينما أنزلنا بهم العذاب .

التفسير

٢٠٤-٢٠٧ - (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) :

الآيات توبيخ للمشركين وإنكار عليهم فى قولهم للرسول تكذيبًا واستبعادًا : « فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] ، وقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »[2] .

قال مقاتل : قال المشركون للنبى - صلى الله عليه وسلم - : يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب فنزلت هذه الآيات .

ومعناها : كيف يستعجلون عذابنا تكذيبًا به ، واستبعادًا لوقوعه ، وهو لاحق بهم لا محالة لكفرهم مهما طال عليهم الأمد ، أخبرنى - أيها العاقل - عن هؤلاء المكذبين إن متعناهم سنين متطاولة بمختلف أنواع المتع الدنيوية التى أملوها ، فطالت أعمارهم ، وصحت أبدانهم ، وكثرت أموالهم وأولادهم ، وتحققت كل رغباتهم ، ثم أتاهم الذى كانوا يوعدونه من العذاب ، فأى شىء أغنى عنهم ما كانوا فيه من متاع الدنيا؟ إنه لا يغنى عنهم شيئًا فى دفع العذاب أو تخفيفه ، وإنما هم فى العذاب خالدون . وفى هذه الآية : « مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال . (٢) من الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

روى عن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن - رضى الله عنه - فى الطواف . وكان يتمنى لقاءه ، فقال له : عظنى ، فلم يزد على تلاوة هذه الآيات ، فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت .

٢٠٨ ، ٢٠٩ - (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ . ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

أى : وما أنزلنا الهلاك بقرية من القرى إلا بعد أن بعثنا إليها رسلًا منذرين أنذروا أهلها بالعقاب إن خالفوا أوامر الله ونواهيه . حتى لا تكون لهم على الله حجة (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) : ولسنا مجاوزين الحق فى الجزاء ، فنهلك غير الظالمين ؛ لأنه ليس من شأننا أن يصدر عنا بمقتضى الحكمة ما هو ظلم بأن نعاقب من لم يظلم أو بأن نعذب أحدًا قبل إنذاره ، كما قال تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا »[1] .

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾)

المفردات :

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) : أى لم تتنزل الشياطين بالقرآن الكريم ، والشياطين : جمع شيطان ، من: شاط بمعنى احترق أو من : شَطَنَ بمعنى بَعُدَ .

(وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ) : أى أن التنزل بالقرآن لا يصح أن يكون من شأنهم .

(لَمَعْزُولُونَ) : أى لممنوعون عن السمع .

التفسير

٢١٠ - ٢١٣ - (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ . فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) :

---

(١) من الآية ١٥ من سورة الإسراء .

ردًّ لما زعمه كفار قريش أن لمحمد - عليه الصلاة والسلام - تابعًا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة ، وأن القرآن مما ألقاه إليه التابع ، أى : لم يحدث ما زعمتموه من نزول الشياطين بالقرآن ، لما أشار إليه قوله سبحانه : (وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) : أى ما يصح ولا يليق أن يحملوه وينزلوا به ؛ لأن من سجاياهم الإفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الإصلاح وهداية العباد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو نور وهدى للعالمين ، فبينه وبين الشياطين منافاة بينة ، ولهذا حيل بينهم وبين السماء حال نزول القرآن على الرسول ، فقد ملئت حرسا شديدا وشهبا ، فكيف يستطيع أحد أن يخلص إلى استماع حرف منه ؟ إنهم منعوا من ذلك ؛ رحمة بعباده ، وحفظًا لشرعه ، وصيانة لقرآنه من تخليط الشياطين وإضلالهم ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه : (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) ففى هذه الآية تعليل لنفى تنزلهم بالقرآن ، أى : أن الشياطين عن السمع لما يتكلم به الملائكة فى السماء لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا مُمَكَّنِينَ منه ، كما قال تعالى مخبرًا عن الجن: « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا »[1] .

أو : إنهم عن السمع لمعزولون لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة ، حيث إن ذوات الملائكة نورانية ، وصفاتهم خيِّرة ، ونفوس الشياطين خبيثة ظلمانية ، وصفاتهم شريرة ، غير مستعدة إلا لقبول ما لا خير فيه ، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن المنطوى على الخير والهدى والرشاد ؟ فلهذا صان الله كتابه ، فأنزله بالروح الأمين على قلب رسوله الأمين ، ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، وحرسه من الشياطين .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) : خوطب النبى - صلى الله عليه وسلم - ليعلم الناس أن الله تعالى لا يقبل الإشراك من أحد، فهو فى الحقيقة خطاب لجميع المكلفين ببيان أن للإشراك من القبح والسوء ما يجعله حقيقا بأن يُنْهى عنه من لا يمكن صدوره منه ؛ فكيف بمن عداه ؟ أو خوطب به والمراد أمته ، فهو فى الحقيقة خطاب للأمة فى شخص إمامها ونبيها .

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الجن .

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾)

المفردات :

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) : العشيرة ؛ القبيلة ، والجمع : عشيرات وعشائر ، والمراد بها قريش ، وقيل : عبد مناف . (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ) : الجناح ؛ اليد والعضد والإبط والجانب وهو المراد هنا ، : أى ألن جانبك ، وجمع الجناح : أجنحة وأجنُح .

(الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) : إلى الصلاة ، أو حيثما كنت .

(وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ) : المراد بالساجدين ؛ المصلون ، : أى ويرى تصرفك وتغيرك من حال كالجلوس إلى حال كالقيام بين المصلين إذا أممتهم .

التفسير

٢١٤ ـ ٢١٦ ـ (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أُمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينذر عشيرته الأقربين ويخوفهم من العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى ؛ فإن الاهتمام بشأنهم أهم ، وليكونوا اللبنة الأُولى للأُمة الإسلامية ، أو ليعلموا أنك لاتغنى عنهم من الله شيئًا وأن النجاة فى اتباع شرعه دون قرابته .

روى مسلم من حديث أبى هريرة : لما نزلت هذه الآية :(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشًا فاجتمعوا ، فعمَّ ، وخصَّ ، فقال : « يا بنى كعب ابن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار . يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار .

يا بنى عبد شمس :أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد المطلب :أنقذوا أنفسكم من النار .يا فاطمة : أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا ،غير أن لكم رَحِما سأَبُلُّها بِبَلالها »[١] .

ويؤخذ من الحديث أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، وأنه لا مانع من أن يصل المؤمن الكافر وأن يقدم له النصيحة والإرشاد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »[٢] .

ثم أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالتواضع ولين الجانب ، وإحسان المعاملة مع من اتَّبعه وصدَّق به وذلك فى قوله تعالى : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى : وألن جانبك للذين آمنوا بك إيمانًا حقيقيا من عشيرتك الأقربين ومن غيرهم ، ومِنْ للبيان .

٢١٦ – (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أى : فإن أعرضت عنك عشيرتك الأقربون ولم يتبعوك بعد إنذارهم ، فقل لهم : إنِّى برىء من عملكم الشامل لاتخاذكم مع الله إلهًا آخر ، والمراد بهم : من تمسك بالشرك من عشيرته الأقربين مع إنذارهم ، والمراد من براءته – صلى الله عليه وسلم – من عملهم : أنه ليس مسئولًا عنه ، وإنما يسأل عنه صاحبه ، وذلك قبل أن يؤمر النبى – صلى الله عليه وسلم – بجهاد المشركين كافة .

٢١٧ – (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) :

أى : وفوض أمرك إليه – سبحانه وتعالى – فإنه القادر بعزه وسلطانه على قهر أعدائه ، ونصر أوليائه .

قال الجنيد رحمه الله : التوكل ؛ أن تقبل بالكلية على ربك ، وتعرض بالكلية عما دونه فإن حاجتك إليه عزَّ وتعَال فى الدارين .

---

(١) البلال : الندى ، والمراد به هنا الخير ، والمعنى : سأصلكم بالخير الملائم لها .

(٢) الآية ٨ من سورة الممتحنة .

وتقديم وصف العزة المنبئ بقهر أعدائه - صلى الله عليه وسلم - وإهلاكهم أوفق بمقام التسلى والصبر على المشاق اللاحقة به من هؤلاءِ المشركين .

٢١٨ ، ٢١٩ - (الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ) :

المراد من الساجدين هنا : المصلون ، أى : الذى يراك حين تقوم للصلاة . وتتصرف فيما بين المصلين بقيامك وركوعك وسجودك وقعودك إذا أَمَمْتَهُم . هكذا قال ابن عباس .

وقيل : يراك حين تقوم للتهجد ، ويرى تقلبك بين المتهجدين بذهابك ومجيئك فيما بينهم ؛ لتصلح أحوالهم ، ولتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ؛ لتعلم كيف يعملون لآخرتهم (١) .

وقال مجاهد : يراك حيثما كنت .

٢٢٠ - (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) : أى السميع لأقوال عباده ، ولكل ما يتعلق به السمع ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، وبكل ما يتعلق به العلم ، ويندرج فيه ما تنويه وتعمله ، كما قال تعالى : « وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ . . . » الآية (٢) .

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾)

المفردات :

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) : أى هل أخبركم ، وفعله نبَّأ . يقال : نبأه الخبر ، وبه .

(عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) : أى على كل من اتصف بكثرة الإفك وهو الكذب ،

(١) روى أنه - عليه السلام - لما نسخ فرض قيام الليل طاف - عليه السلام - تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر مايصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم ، فوجدها كبيوت الزنابير ، لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن .

(٢) سورة يونس ، من الآية : ٦١

وبكثرة الإثم وهو أن يعمل ما لايحل ، ويطلق عليه : الذنب ، وفعله أَفَكَ كضرب وعلم ، إفكا — بكسر الهمزة وفتحها ،وَأَفَكًا بالتحريك—وأُفُوكا كأَفَّك ، أى : كذب ،وأثيم : فَعيل من أَثِم كعلم إثمًا ومأْثمًا فهو آثم وأثيم وأَثَّام .

التفسير

٢٢١–٢٢٣ — (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) :

الآيات استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد بيان امتناع نزولهم بالقرآن فيما سبق ، وللرد على قول المشركين الذين قالوا : إن ما جاء به محمد ليس حقًّا ، وإنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أتاه به رَئِيٌّ ، أى : تابع من الجن . تنزيهًا من الله سبحانه وتعالى لجناب رسوله عما قالوه كذبًا وافتراء ، وتنبيهًا على أن الذى جاء به هو من عند الله نزل به ملك كريم ولم تأْت به الشياطين ، فإنهم لا رغبة لهم فى مثله ، ولا ينزلون إلَّا على من يشابههم ويشاكلهم ، كما قال تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » : أى هل أُخبركم على مَنْ تتنزل الشياطين ، تتنزل على كل من اتصف بالكذب الكثير والذنب العظيم من الكهنة والمتنبئة وما جرى مجراهم من الفسقة والفجرة أمثال : سطيح ، وطليحة ، ومسيلمة ، فلا تتنزل الشياطين إلَّا على مثلهم فلا يتجاوزهم ، ولا ينفك عنهم إلى غيرهم من الصالحين وبخاصة الأنبياء ، وحيث تنزهت ساحته — صلى الله عليه وسلم — عن نزولهم اتضح أن الذى نزل بالقرآن عليه ملائكة الله المقربون .

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) : أى يلقى الأفاكون سمعهم إلى الشياطين ، ويتلقون وحيهم إليهم ، وإلقاء السمع مجاز عن شدة الاهتمام والمبالغة فى الإصغاء إلى ما يلقى إليهم... إلخ .

أو المراد : يلقى الأفاكون ما سمعوه من الشياطين إلى أتباعهم وأوليائهم .

وأكثر الأفاكين مفترون كاذبون ، يفترون على الشياطين ما لم يخبروهم به ، على معنى أنهم قلَّما يصدقون فيما يحكونه عن الجنىّ ، وإنما هم فى أكثره كاذبون ، فقد جاء فى الحديث

أن الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه ، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ، ولا كذلك محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد أخبر عن مغيبات كثيرة وصدق فى جميعها ، والمراد من أكثرهم فى قوله تعالى : (وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) :جميعهم ، أو غالبهم ، وهذا كاف فى عدم الاطمئنان إلى أقاويلهم .

وقيل : المراد من قوله تعالى : (يُلْقُونَ السَّمْعَ) :هم الشياطين ، وكانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يتسمعون إلى الملإ الأعلى ، فيخطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلع عليه الملائكة من الغيوب . ثم يوحون به إلى أوليائهم من الإنس ويزيدون على ما يسمعون أكثر من مائة كذبة فيصدقهم الناس فى كل ما يقولون .

روى البخارى من حديث الزهرى قال : أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة – رضى الله عنها – : سأل الناس النبى – صلى الله عليه وسلم–عن الكُهّان ؟ فقال : « إنهم ليسوا بشىء » فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشىء يكون حقًّا ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيُقَرْقِرُها (أى : يرددها) كقرقرة الدَّجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة. وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم ؛ لأنهم يُسْمِعُونهم ما لم يسمعوا من الملائكة لشرارتهم ، أو لقصور فهمهم ، أو لأنهم لا يسمعون حقًّا وإنما هو كذب واختلاق » .

(وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾)

المفردات :

(وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) : أى شعراء الكفار ومن ماثلهم من أهل الضلال .

(فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) : أى هم متحيرون ، فلا يهتدون إلى الجادة ، يقال : رجل هائم وهيوم بمعنى متحير . (انتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) : أى عالجوا أسباب النصر بوسائل الحق حتى تحقق لهم . (أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) : أى أىّ تَحوُّل وتغير يصيبهم بين يدى الله . فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر الثواب ، والفعل : قَلَبَه من باب : ضرب ونصر : حوَّله ظَهْرًا لبطن ، والمنقَلَب : اسم زمان أو مكان ما يحيق بهم .

التفسير

٢٢٤-٢٢٧ - (وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) :

الآيات استئناف مسوق لإبطال ما قاله المشركون فى حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- تنزيهًا عن الاتصاف بما وصفوه به حيث قال سبحانه : (وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) : أى أن من يحق وصفهم بالشعر هم شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ويقولون فيه كل كذب وباطل ، والذين يشيعون بشعرهم الفحش والخنا

فيمزقون الأَعراض ، وينشرون المثالب ، ويقدحون فى الأَنساب ، ويفرطون فى الثناء والهجاء ابتغاء عرض زائل ، ومنزلة حائلة ،ومع كل واحد غواة قومه – وهم السفهاء – يجارونهم ويسلكون مسلكهم ، وعن ابن أَبى طلحة : هم ضلال الجن والإِنس ، وشعر هؤلاء – كما يقول القرطبى فى تفسيره – : ضلال وباطل لا يبيحه خلق ولا دين فلا يحل سماعه ولا إِنشاده فى مسجد وغيره كمنثور الكلام القبيح ونحوه .

أَما شعر غيرهم من أَهل الرشاد والنُّهى المهتدين إِلى طريق الحق المنافحين عن دين الله فلا بأْس به قولًا أَو سماعًا ، فمثل شعرهم كان يقبل على سماعه الرسول والتابعون ، ولا ينكر الشعر الحسن فى مبناه ومعناه أَحد من أَهل العلم ، وكثير منهم قاله وتمثل به ، أَو سمعه فأَنصت إِليه وأَثنى عليه ، حيث كان حكمة وعظة ، ولم يكن هجرًا ولا أَذى لمسلم . روى عن أَبى هريرة قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المنبر يقول : « أَصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد : أَلا كل شىء ما خلا الله باطل » أَخرجه مسلم ، وزاد : « وكاد أُمية بن أَبى الصلت أَن يُسْلم »[1] ذكر ذلك القرطبى . وقال – صلى الله عليه وسلم – فى الشعر الذى يرد به حسان على المشركين : « إِنه لأَسرع فيهم من رشق النبل » أَخرجه مسلم .

وما أَحسن قول الماوردى : الشعر كلام العرب ، مستحب ، ومباح ، ومحظور ، فالمستحب : ما حذر من الدنيا ورغب فى الآخرة ، وحث على مكارم الأَخلاق ، والمباح : ما سلم من فحش وكذب ، والمحظور : ما كان كذبًا وفحشًا ، وجعل الرويانى منه ما فيه الهجو لمسلم سواء كان بصدق أَو كذب .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) :الاستفهام للتقرير ، والخطاب لكل من تتأَتى منه الرؤية للإِيذان بأَن حالهم من الظهور والوضوح بحيث لا يختص برؤيته راء ، أَى : أَلم تر أَن الشعراء يهيمون على وجوههم فى كل واد من أَودية الغى والضلال ، وفى كل مسلك من مسالك الزور والبهتان وفى كل شعْب من شعاب الوهم والخيال ، لا يهتدون إِلى الحق الذى

---

(١) كان أمية كثير العجائب يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قريباً من أهل الكتاب وهو من شعراء الطائف. ا هـ : من فحول الشعراء لابن سلام الجمحى .

يدعو من اتبعه إلى التثبت والتروى والصدق ويحول بينه وبين شهوة الشهرة التى تطمس على قلبه وبصيرته ، فلا يكترث بما فعل ، ولا يبالى بما قال ، ولا يستبين طريق الحق التى تدعوه إلى الإقلاع عما تعوده من كل خلق قبيح ، وأسلوب ذميم ، وإفراط وتفريط (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) من الأفاعيل التى ذكروها فى شعرهم . ورددوها فى قصيدهم غير مكترثين بما يستتبعه صنيعهم من لوم وتقريع كما كانوا يحثون فى قولهم على الكرم والجود والمواساة وإغاثة الملهوف مع أنهم من كل ذلك بَراء ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

فكيف يتوهم أن ينتظم الرسول فى سلكهم وقد تنزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبة الاتصاف بشىء من الأمور المذكورة ، فقد كان معروفًا بمحاسن الصفات ، وكريم الخلال ، وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجميع الملكات الإنسية ، ولم يكن أتباعه كأتباعهم سفهاء ضالين ، وإنما هم هداة مرشدون ، لهم فى رسول الله أسوة حسنة .

روى ابن عباس أن الآيات نزلت فى شعراء المشركين : عبد الله بن الزِّبَعْرى ، وهبيرة ابن أبي وهب المخزومى ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبي عَزَّةَ الجمحى ، وأمية بن أبي الصلت . قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونه ، ويجتمع لهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ، وهم الغاوون .

والظاهر من السياق أنها نزلت عامة شاملة لجميع شعراء الكفار ، ويدخل فيهم هؤلاء الشعراء دخولًا أوليًا .

ثم استثنى — سبحانه — بقوله : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . . الآية) شعراء المؤمنين الذين كانوا يدعون إلى التوحيد ويثنون على الله — تعالى — ويحثون على امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وقد ابتغوا فيما آتاهم الدار الآخرة ، ولم يُغفلوا نصيبهم من الدنيا ، وذكروا الله كثيرًا ، ولو وقع منهم فى بعض الأوقات هجو ، وقع منهم بطريق الانتصار إلى الحق ، وبما حده الله عز وجل من غير ظلم أو زيادة على ما قيل فيهم افتراءً وعدوانًا .

وقيل : المراد بالذين استثناهم الله — سبحانه وتعالى — شعراء المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وَيُقَبِّحُون بهجائهم هُجَاةَ قريش ، واستدل لذلك

بما أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة : أن هذه الآية نزلت فى رهط من الأنصار هَاجَوْا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم : كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، كما استدل عليه بما أخرجه جماعة عن أبى سالم حسن بن البراء أنه قال : لما نزلت « وَالشُّعَرَآءُ . . . » الآية ، جاء عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وهم يبكون ، فقالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلم أنّا شعراء فأنزل الله (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . .) الآية . فدعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتلاها عليهم .

وقد سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الشعر ، وأجاز عليه ، وكان يقول لحسان ابن ثابت : « اهجهم - يعنى المشركين - وإن روح القدس سيعينك » ، وفى رواية : « اهجهم وجبريل معك » ، وعن كعب بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل » ذكر ذلك أبو السعود ، والآلوسى فى تفسيرهما .

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) : تهديد شديد لكل من انتصر بظلم يشير إليه الإبهام والتهويل فى قوله تعالى : (أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) . وقرأ ابن عباس : أى منفلت ينفلتون ؛ من الانفلات وهو النجاة .

والمعنى على القراءتين لا يختلف فى غايته ، فهو على القراءة الأولى : وسيعلم الذين ظلموا من الشعراء وغيرهم أى مصير يصيرون ، وأى مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع ، ويومئذ لا تنفعهم معذرتهم عما فرطوا فى جنب الله . كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ »[1] .

---

(١) الآية : ٥٢ من سورة غافر .

وعلى القراءة الثانية : أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى ، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات ينفلتون إليه من عذاب الله طمعًا فى النجاة حيث توصد فى وجوههم كل الطرق والمسالك ؛ ويساقون إلى النار فهى مصيرهم وإلى العذاب مرجعهم .

وكون الآية عامة فى كل ظالم هو الصحيح كما قال ابن أبى حاتم ، وقيل : المراد بالظالمين أهل مكة فهو عام أريد به خاص .

« سورة النمل »

مكية وآياتها ثلاث وتسعون

مقاصدها :

بينت هذه السورة أن القرآن هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة معذبون أسوأ العذاب وهم الأخسرون يوم الدين .

وتحدثت عن قصة موسى وأهله عند رجوعه من مدين إلى مصر بعد هجرته إليها ، فذكرت أنه رأى نارًا وأنه ذهب إليها ليأتيهم بقبس منها يستدفئون به ، فلما وصل إلى مكان النار سمع نداءً يقول : « بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » .

ثم تحدثت عما جرى بينه وبين فرعون وقومه على سبيل الإجمال ، حيث ذكرت أنهم جحدوا بآياته وزعموها سحرًا ، فساءت عاقبتهم بسبب كفرهم .

وتحدثت عن داود وسليمان بأن الله آتاهما علمًا فضلهما به على كثير من عباده المؤمنين ، وأن سليمان خلف أباه داود فى النبوة والملك ، وأن الله – تعالى – علمه وأباه منطق الطير وأعطاهما طرفًا من كل شىء .

وذكرت أنه – تعالى – جمع لسليمان جنودًا من الجن والإنس والطير ، فلما أتوا على وادى النمل قالت نملة لجماعتها آمرة ومحذرة : « ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » فضحك سليمان لقولها هذا ، ودعا ربه أن يعينه على شكر نعمته التى أنعمها عليه وعلى والديه ، ويوفقه لصالح العمل الذى يرضيه وأن يدخله برحمته فى عباده الصالحين .

وذكرت أنه تفقد الطير التى جعلها الله من جنوده ، فلم يجد الهدهد ، فعجب لتخلفه عن موقعه ، وتوعده بالتأديب الشديد ، ما لم يأته بسبب مقبول يقتضى تخلفه ، فلم يطل غيابه ، بل حضر إليه وأخبره بخبر عجيب ، إذ قال : « أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . » الآيات .

فلما فرغ من حديثه العجيب قال له سليمان : « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » وبعث معه رسالة إلى ملكة سبأ ، وأمره بمراقبتها بعد وصول خطابه إليها ، ليعلم منه كيف تتصرف عندما يحدق بها الخطر ، فحمل كتابه وألقاه إليها ، فجمعت أشراف قومها قائلة : « يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » وطلبت منهم الإفتاء وبذل المشورة فى هذا الأمر الخطير ، إذ قالت : « أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ » ، فردوا قائلين : « نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » فلما أحست منهم الميل إلى القتال دفاعًا عن البلاد قالت : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً . . . » ورأت المصالحة بإرسال هدية إلى سليمان ــ عليه السلام ــ لترى أثرها عنده ، فلما وصل الرسول بهديتها ردها سليمان إليها ، وأخبرها بأن الله أعطاه خيرًا مما أعطاها ، ولم يقبل منها سوى الاستسلام ، حتى لا يأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ، فيخرجوا من بلادهم أذلة صاغرين .

ثم طلب من جلسائه أن يحضروا لها عرشها قبل أن تأتيه مسلمة ، فكان أسرعهم مَنْ عنده علم من الكتاب ، حيث جاء به قبل أن يرتد إليه طرفه فشكر الله ــ تعالى ــ على تلك النعمة ، وطلب من أتباعه أن يُنَكِّروه لها لتغيير هيئته ليعرف مقدار فطنتها « فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » ، ثم قيل لها : ادخلى القصر ، فلما دخلته رأت صَحْنه كأنه ماءٌ ، فكشفت عن ساقيها ، فقال : إن ما تظنينه ماءً هو صرح أملس من

زجاج ، وحينئذ قالت معترفة بخطئها فى عبادة الشمس : « إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ثم حكت السورة قصة هود مع نبيهم صالح وكفرهم . . . وتآمرهم على قتله وأن الله عاقبهم على مكرهم بإهلاكهم أجمعين وأنجى صالحًا ومن معه من المؤمنين .

وذكرت قصة قوم لوط ، وقد جاء فيها لومه إياهم على إتيانهم الرجال شهوة من دون لنساء : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » : أى يتنزهون عن أفعالنا ولا يرضونها لأنفسهم ، فأنجاه الله وأهله المؤمنين ، وأهلك سواهم من الكافرين وفيهم امرأته .

ثم ناقشت المشركين وقارنت بين معبوداتهم الضعيفة وبين الله الواحد القهار ، وبدأت المناقشة بقوله تعالى : « آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » وبينت آثار قدرة الله ونعمه : فذكرت أنه خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة ، وأنه جعل الأرض قرارًا وجعل خلالها أنهارًا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزًا دون أن يكون مع الله إلٰه فى خلق هذه الكائنات والنعم العظيمة .

ثم عقبت ذلك ببيان كثير من النعم الجليلة التى لم ينعم بها سوى الله ، وساءلتهم فى كل ذلك منكرة عليهم شركهم : « أَإِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ » .

ثم عابت عليهم شكهم فى الآخرة وقولهم : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ » وزعمهم أن أمر الآخرة من أساطير الأولين ، وردت عليهم بقوله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » ودعت نبيه — صلى الله عليه وسلم — إلى عدم الاهتمام بإعراضهم ، فذكرت قول الله — تعالى — : « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » وتوعدتهم بقوله تعالى : « قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ » وبقوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » .

ثم بينت أن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون ، وأمرت النبى بالتوكل على الله بقوله — تعالى — : « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ » وبينت

أن خصومه يشبهون الصم العمى ، فما هو بمسمعهم ولا هاديهم : « إن تُسْمِعُ إلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ » .

وذكرت أنه إذا قرب وقوع القول عليهم – وهو ما وعدوه من البعث والعذاب – أخرج الله دابة من الأرض تكلمهم ، وتكون حجة عليهم ، لأن الناس صاروا بآيات الله لا يوقنون ، وسيأتى بسط الحديث فى شأنها فى موضعها من السورة .

ثم بينت أنه يوم ينفخ فى الصور يفزع أهل السموات والأرض إلَّا من شاء الله كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، ممن يثبتهم الله يومئذ ، وأن الجبال فى هذا اليوم تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، وأن أصحاب الحسنات يجازون يومئذ بخير منها ، وأصحاب السيئات من الكفار يكبون على وجوههم فى النار .

ثم ختمت السورة ببيان أن الله – تعالى – أمر نبيه أن يعبد رب هذه البلدة التى حرمها وهى مكة ، وله كل شىء ، وأمره أن يكون من المسلمين وأن يتلو القرآن ، وأن يقول لقومه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(تِلْكَ) : إشارة إلى السورة . (آيَاتُ الْقُرْآنِ) : أى آيات من القرآن ، فالإضافة على معنى مِنْ . (مُبِينٍ) : موضح للأحكام والأخلاق والعظات ، من : أبان غيره ، : أى أوضحه ، أو الواضح بإعجازه ومعانيه ، من : أبان اللازم بمعنى اتضح . (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون ويترددون .

التفسير

١ ـ (طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) :

« طس » اسمان لحرفين من حروف المعجم ، هما الطاء والسين ، وقد مضى الكلام بشأن مثلهما فى أوائل سور : البقرة وآل عمران ويونس وهود وغيرها ، فارجع إليها إن شئت ، ونزيد على ذلك أن بعض المعْنِيِّين بإعجاز القرآن الكريم أثبتوا بالآلات الحاسبة : (الكمبيوتر) أن كل سورة بدئت بمثل هذه الفواتح ، تغلب فيها الحروف التى بدئت بها على سائر الحروف التى تكونت منها كلمات السورة ، وبما أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُمِّىٌّ لا يقرأ ولا يكتب فذلك شاهد على أن القرآن ليس من تأليفه ـ كما زعم أعداء الحق ـ بل هو من عند الله العزيز الحكيم .

والمراد بقوله : « وَكِتَابٍ مُّبِينٍ » القرآن نفسه ، وتنكيره للتعظيم والتفخيم ، وقد وصف به على سبيل العطف للإيذان بأنه جامع بين صفتين : إحداهما ، أنه معجزة مقروءة على الدوام ، وثانيتهما : أنه كتاب مبين لما اشتمل عليه من الحكم والأحكام ، وأحوال القرون الأولى والمعجزات الكونية ، وأحوال الآخرة ، والعقائد النظيفة التى لا تناقض فيها ولا استحالة ، وكما أنه موضح لما ذكر فهو واضح لكل قارئ ولكل سامع ؛ فلا يصعب فهمه على أحد ، أميا كان أو قارئا .

وقد فاقت معجزة القرآن سائر المعجزات السابقة ، لأنها لا وجود لها الآن ، فأين عصا موسى ، وناقة صالح ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى من عيسى بإذن الله ؟ لقد ذهبت كلها وأصبحت خبرًا بعد عين ، ولولا أن القرآن أيدها لكانت موضعًا للشك والريبة. أما معجزة القرآن فهى باقية ما بقى الزمان ، واضحة الإعجاز والبيان ، لأن شريعته التى جاء بها هى الشريعة العامة للبشرية ، الخاتمة لجميع الشرائع ، فلذلك جعله الله آية باقية مقروءة مكتوبة ، بينة مبينة محفوظة من التغيير والتبديل ، بكفالة العزيز الحكيم : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » [1] .

ومعنى الآية : طس : تلك السورة آيات وعلامات من القرآن وكتاب مبين للعقائد الصحيحة ، والأحكام السديدة ، والأخلاق الرشيدة ، والغيبيات على ما هى عليه ، والكونيات وما ترشد إليه .

٢ ، ٣ـ (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) :

أى هذا القرآن عظيم الهداية والبشارة للمصدقين ، الذين يضمون إلى تصديقهم به إقامتهم الصلاة فى مواقيتها ، وإيتاءهم الزكاة لمن يستحقها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب مصدقون ، لا يشكون ولا يمارون ولا يجادلون بل يعملون لها مخلصين ، فإن إيمانهم بها يحملهم على صدق النية وإخلاص العمل ، خوفًا من العقاب ، ورغبة فى جميل الثواب .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

والمراد من الزكاة هنا : مطلق الصدقة ؛ فإن الزكاة بمعناها المعروف فرضت بعد الهجرة فى حين أن هذه السورة مكية .

٤ ـ (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) :

فى هذه الآية والتى بعدها بيان لحال الكفرة ومآلهم بعد بيان أحوال المؤمنين وعاقبتهم .

ومعلوم أن الشيطان هو الذى يزين القبائح والمعاصى لأصحابها فيقبلون عليها كما قال ـ تعالى ـ فى سورة النحل : « تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » الآية ٦٣

وإسناد التزيين هنا إلى الله تعالى مجاز عن تخليه عن معونتهم وتركهم لشياطينهم وغَرائزهم الشريرة ، التى تزين الكفر والمعاصى إلى نفوسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر بالآخرة .

والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء ، وظنوا أن الحياة هى الحياة الدنيا فانصرفوا إليها ، ولم ينفعهم نصح أنبيائهم ، فهؤلاء تخلينا عن معونتهم على الهدى ، وتركناهم لشهواتهم وشياطينهم ، لتزين لهم ما هم فيه ، فهم فى غيهم يتحيرون ويترددون ، والعمى صفة البصر ، والعمه صفة البصيرة ، فبصيرتهم فى ظلام الضلال لاتدرك ما ينفعها ولا ما يضرها .

٥ ـ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) :

أى ؛ أولئك الذين كفروا بالآخرة وتركناهم فى ضلالهم ، قضينا عليهم بالعذاب السيء فى الدنيا بالقتل والأسر وغير ذلك من محن الحياة الدنيا ، وهم فى الآخرة هم الأشد خسرانًا منهم فى الدنيا ، حيث يخلدون فى النار وبئس القرار ، ولا توجد خسارة أفدح من هذه الخسارة .

ويصح أن تكونه كلها فى عذاب الآخرة ، على معنى أن لهم العذاب السيء فيها ، وهم أشد الناس خسارة حينئذ ، لحرمانهم من الثواب ، واستمرارهم فى العقاب ، بخلاف عصاة المؤمنين .

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(مِن لَّدُنْ): من عند . (حَكِيمٍ) : عظيم الحكمة ، والحكمة : إتقان الأمور . (آنَسْتُ) : أبصرت . (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) : بشعلة نار مقبوسة ومأخوذة من النار التى أبصرها . (تَصْطَلُونَ) : تستدفئون . (بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) : جعلت البركة لمن فى البقعة التى فيها النار ، ولمن فى الأماكن التى حولها .

(الْعَزِيزُ) : القوى الذى يَقْهرُ وَلَا يُقْهَر .

التفسير

٦ ـ (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) :

بينت الآيات السابقة بعض شئون القرآن ، وجاءت هذه الآية تمهيدًا لما يليها من القصص التى اشتملت عليها ، وهى مستأنفة لهذا الغرض ، وليست معطوفة على ما قبلها ، وَالذى يُلْقى القرآن على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند الحكيم العليم هو الروح الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ قال تعالى: « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ »[1] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٣ ـ ١٩٥

وقد تضمنت الآية تحقيقًا لنزوله من عند الله وتأكيدًا لذلك وتفخيمًا لشأنه ، فالآية واضحة الإشارة إلى أن هذا القرآن مشتمل على حِكَم عظيمة ، وعلم غزير ، لا يمكن أن يصدرا عن البشر ، وإنما يصدران عن إله حكيم عليم ، ولذلك صُدِّرَتْ بإنَّ واللام فى قوله : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ » وهما للتأكيد ، وجمع بين الحكمة والعلم ، لأن فيه ما هو من قبيل الحكمة كالعقائد الصحيحة والأحكام الشرعية الصالحة لكل زمان ومكان ، وما هو من قبيل العلم المطلق مثل القصص والأخبار الغيبية .

والواقع أن العلم يعم الحكمة وسواها ؛ ولكنه جمع بينهما للإيذان باشتمال القرآن عليهما جميعًا على أكمل وجه .

ومعنى الآية : وإنك – أيها الرسول – ليلقى إليك القرآن من عند حكيم عظيم الحكمة وإصابة الحق ، عليم واسع الإحاطة بالأمور ما وجد منها وما سوف يوجد ، لأنه فوق مستوى قدرة البشر : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[١] .

٧ – (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) :

كان موسى – عليه السلام – قد خرج من مصر حين علم أن الملأ من قومها يأتمرون به ليقتلوه قصاصًا منه لقتله القبطى الذى اعتدى على رجل من بنى إسرائيل ، فخرج إلى سيناء وانتهى فى رحلته إلى مدين ، حيث عمل أجيرًا عند شعيب فى مقابل تزويجه إحدى ابنتيه ، فلما قضى المدة المتفق عليها ، حنَّ للرجوع إلى مصر ومعه أهله ، فسار بأهله فأدركها المخاض عند الطور ، فوضعت فى ليلة شاتية باردة ، وكان قد حاد عن الطريق لأمر شاءه الله – تعالى – وقد أصبح بحاجة إلى أمرين : أحدهما : أن يوقد نارًا ليستدفئ بها أهله ، وثانيهما : أن يهتدى إلى الطريق الموصل إلى مصر بعد أن حاد عنه ، وقد أدركته عناية الله وهو فى حيرته هذه ، حيث أظهر له نارًا على بعد قليل من الطور كما قال – تعالى – فى سورة القصص : « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا »[٢] .

---

(١) سورة النساء ، من الآية : ٨٢

(٢) سورة القصص من الآية : ٢٩

وحينئذ قال لأهله : إني أبصرت نارًا سآتيكم منها بخبر عن الطريق الذى نصل منه إلى مصر بسؤال من أوقدوا هذه النار ، أو آتيكم بشعلة مقتبسة ومأخوذة من هذه النار التى أراها ، لعلكم[1] بهذه الشعلة المقبوسة تستدفئون إذا جعلتها داخل حطب وأوقدته بها .

وإدخال السين على الفعل فى قوله : « سَآتِيكُم » لتأكيد الوعد وتحقيقه - كما قال الزمخشرى - ولإفادة مجيئه عن قرب حتى لا يستوحش أهله لتركه إياهم فى هذا المكان .

٨ - (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

فى الكلام مضاف مقدر ، أى : فلما جاءها بورك مَنْ فى مكان النار ومَنْ حول مكانها ، والمراد من مكان النار : البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى : « نُودِىَ مِن شَاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ »[2] والمراد ممن فى بقعة النار ومن حولها : كل من فى هذا الوادى وحواليه من أرض الشام التى باركها الله بمبعث الأنبياء ودفنهم بها ، ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله فيها موسى - عليه السلام - وقيل : من فى بقعة النار : موسى - عليه السلام - ومن حولها : الملائكة ، وقيل : العكس .

وقد نبه الله على جلال المقام ، وتنزهه - تعالى - عن الحلول وعن صفات البشر ، بأن ختم الآية بقوله - سبحانه وتعالى - : « وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

والنار التى رآها موسى - عليه السلام - لم تكن نارًا حقيقية ، فقد كانت نورًا كما روى عن ابن عباس : (لم تكن نارًا ، إنما كانت نورًا يتوهج) ، وهذا النور من نور الله تعالى - كما روى عنه .

ونقل القرطبى عن ابن عباس والحسن أن المعنى : قدس من فى النار وهو الله - سبحانه وتعالى - عنى به نفسه[3] تقدس وتعالى ، ثم عقبه بقوله : قال ابن عباس ومحمد بن كعب :

---

(١) تستعمل « لعل » للرجاء ، والتعليل ، وهى هنا صالحة لكليهما .

(٢) سورة القصص ، من الآية : ٣٠

(٣) أنكر الإمام هذه الرواية وقال إنها موضوعة ، وقال أبو حيان : إذا ثبتت هذه الرواية عن ابن عباس وغيره ، كان معناها بورك من قدرته وسلطانه فى النار ومن حولها . وقد شرحها القرطبى على هذا النحو حذرًا من فكرة الحلول التى يأباها الإسلام ، وينزه عنها ابن عباس وأعلام الصحابة والتابعين ، وقد نقلنا ما قاله القرطبى فى ذلك ، وستراه بعد قليل .

النار : نور الله - عز وجل - نادى الله موسى ، وهو فى النور - قال القرطبى - وتأويل ذلك : أن موسى - عليه السلام - رأى نورًا عظيمًا فظنه نارًا ، وهذا لأن الله - تعالى - ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار ، لا أنه يتحيز فى جهة ، ومثله كمثل قوله - تعالى - : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » [١] فإنه - سبحانه وتعالى - لا يتحيز فيهما ، ولكن يظهر فى كل فعل فيعلم به الفاعل ، وعلى هذا يكون « بُورِكَ مَن فِي النَّارِ » بمعنى قُدِّسَ مَنْ فِي النار سلطانه وقدرته وكلامه : انتهى بتصرف يسير .

ثم نقل القرطبى عن سعيد بن جبير كلامًا يشبه كلام ابن عباس وابن كعب ، إذ قال : كانت النار بعينها فأسمعه الله كلامه من ناحيتها ، وأظهر له ربوبيته من جهتها ، قال القرطبى : وهو كما روى أنه مكتوب فى التوراة : (جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبال فاران) [٢] فمجيئه من سيناء بَعْثُه موسى ، وإشرافه من ساعير بَعْثُه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بَعْثُهُ محمدًا - صلى الله عليه وسلم - وفاران (مكة) وسيأتى فى القصص زيادة بيان لإسماع الله كلامه موسى : انتهى بتصرف يسير .

وإليكم تفسير الآية على أن منْ فى النار ومَنْ حولها هو موسى والملائكة فيما يلى :

فلما وصل موسى إلى النار التى رآها وهو بجانب الطور ، نودى نداءً إلٰهيًا منبعثًا من الشجرة بأنه بورك موسى الذى فى بقعة النار ، وبورك مَنْ حولها من الملائكة ، وقيل لموسى : سبحان الله رب العالمين ، تنزيهًا له - تعالى - عن أنْ يشبهه شىءٌ من مخلوقاته ، أو يحيط به شىء من مصنوعاته فلا تكتنفه أرض ولا سماء ، ولما وقف موسى مبهورًا متعجبًا من صدور الكلام عن النار ، أعلمه الله أنه - سبحانه - هو المتكلم فقال :

٩ - (يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

الضمير فى « إِنَّهُ » للشأن ، والعزيز الحكيم وصفان للفظ الجلالة ، ممهدان لما أُريد إظهاره على يد موسى - عليه السلام - من المعجزة .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣

(٢) جاء فى كتاب (محمد نبى الإسلام فى التوراة والإنجيل والقرآن) للمستشار محمد عزت الطهطاوى منقولا عن الإصحاح ٢٣ عدد ٢ من سفر التثنية على لسان موسى - عليه السلام - بلفظ : (جاء الرب من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران ومعـه ألوف الأطهار ، فى يمينه سنة من نار ، أحب الشعوب ، جميع الأطهار بيده) انظره وشرحه فى ص ٩ من هذا الكتاب ، والمقصود من عبارة (بيده سنة من نار) شريعة الجهاد . التى جاء بها رسوله المبعوث من جبال فاران ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ياموسى إن الأمر والشأن أنا الله القوى القادر على ما لا يقدر عليه غيرى من الأمور العظام التى من جملتها ما سوف أؤيدك به من المعجزات ، الحكيم الذى تصدر أحكامه وأفعاله بغاية الإحكام والسداد .

(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(تَهْتَزُّ) : تتحرك باضطراب . (كَأَنَّهَا جَآنٌّ) : الحية الخفيفة السريعة .

(وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) : انصرف راجعًا إلى الخلف ولم يَعُدْ ، من : عَقَّب المقاتل ، إذا كَرَّ بعد الفرار . (جَيْبِكَ):الجيب ؛ فتحة القميص من أعلاه إلى الصدر ، ليدخل منه الرأس ، واستعماله فى الفتحة التى يوضع فيها كيس الدراهم ونحوه مُوَلَّدٌ .

(فِى تِسْعِ آيَاتٍ) :أى ؛ آية معدودة من جملة تسع آيات . (مُبْصِرَةً) : بينة واضحة ، من أبصر ، بمعنى وضح مجازًا ، أو مُعينَة على البصر ، أى : على التبَصُّر ، من أبصر غيره ، أى : جعله يبصر بقلبه ويهتدى .

التفسير

١٠ - (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . . .) الآية .

هذه الآية من جملة ما كلم الله به موسى من الشجرة ، وقد تضمنت أنه - تعالى - أمره أن يلقى عصاه من يده ، ليريه آية على أن الذى يكلمه هو الفاعل المختار القادر على كل شىء ، وقد شبهت العصا بعد تحولها بالجان ، وهى ضرب من الحيَّات أكثرها حركة وأسرعها اضطرابًا ، مع صغر فى الحجم ، وقد جاء تشبيهها بثعبان مبين فى قوله تعالى : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ »[1] والثعبان أكبر حجمًا من الجان ، فهى فى حجم الثعبان جسمًا ، وفى صورة الجان حركة واضطرابًا سريعًا ، فلذا عبر عنها بالكلمتين فى موضعين مختلفين من السوَر .

والمعنى : ونادى الله موسى : ألق عصاك الخشبية من يدك ، فألقاها فانقلبت حية ، فلما رآها تتحرك بشدة واضطراب كأنها جان فى سرعتها وخفتها ، انصرف عنها مدبرًا خوفًا منها ، ولم يرجع إلى المكان الذى كان فيه حين ألقى عصاه فناداه ربه مطمئنًا بقوله :

(يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) : يا موسى لا تخف من هذه الحية التى آلت إليها العصا ، ولا من غيرها فإنه لا يخاف فى حضرتى المرسلون ؛ لأننى أحميهم وأحفظهم من كل شىء .

وفى هذه الآية بشارة له بأنه سيكون من رسل الله - سبحانه وتعالى - وتعليم له بأنه لا ينبغى لمن يرسلهم الله إلى خلقه لهدايتهم ، أن يخافوا أو يخطر الخوف ببالهم عند الوحى إليهم وإن وُجِدَ ما يخاف منه ، لاستغراقهم فى تلقى أوامر الله ، وانجذاب أرواحهم إلى عالم الملكوت ، والتقييد بكلمة « لَدَيَّ » لأن المرسلين يغلب الخوف عليهم فى غير هذه الحالة ، فهم فى سائر أحيانهم أخوف الناس من الله - عز وجل - فقد قال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[2] ولا أعلم منهم بالله - تعالى - .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٠٧

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ٢٨

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة وهم فى حضرته ـ تعالى ـ فإنهم لا يخافونه خوف عقاب وإن خافوه خوف إجلال ، لأنهم صفوة عباده وأحرصهم على تقواه .

وبعد أن بين الله أن المرسلين لا يخافون فى حضرته ـ تعالى ـ عقب ببشارة عامة لكل من أحسن بعد الإساءة من عباد الله ـ تعالى ـ فقال ـ سبحانه ـ :

١١ ـ (إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ولفظ : « إلَّا » هنا بمعنى (لكن) وهو ما يسمى فى عرف النحاة بالاستثناء المنقطع ، والمعنى : لكن من ظلم نفسه بارتكاب عمل سيء ، ثم بدل فأتى بعمل حسن بعد عمله السيء تائبًا إلى ربه ، فلا يخاف ، فإنى عظيم الغفران واسع الرحمة .

وهذه الرحمة بالتائبين مقررة فى آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى »[١] ، وقوله : « وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا »[٢] ، وقوله : « وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا »[٣] .

١٢ ـ (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

بينت الآية السابقة أن الله ـ تعالى ـ أرى موسى كيف يحول العصا الخشبية إلى حية تسعى ، وجاءت هذه الآية لتبين معجزة أخرى ودليلًا باهرًا على قدرة الله ـ تعالى ـ وأنها مع سابقتها يؤيده الله بهما فى رسالته إلى فرعون وقومه فى ضمن تسع آيات تشهد برسالته ، وتقوم بها حجة الله عليهم إن لم يستجيبوا له ، إذ يعاقبهم على كفرهم أشد العقاب .

والآيات التسع التى أشارت إليها الآية هى : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٨٢

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٠

(٣) سورة طه ، الآية : ١١٢

والطمسة : جعل أبواب رزقهم حجارة ، والجيب : فتحة القميص من جهة الصدر وهى مدخل الرأس فيه ، كما تقدم فى بيان المفردات .

ومعنى الآية : وأدخل يدك فى فتحة قميصك من جهة الصدر ، وأخرجها تخرج بيضاء ساطعة تتلألأ كأنها قطعة من القمر من غير سوء حل بها ، وهاتان الآيتان فى جملة تسع آيات واضحات أؤيدك بهن وأجعلهن براهين على صدقك فى دعواك الرسالة عنا إلى فرعون وقومه ، فإنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن طاعتنا والإيمان بنا ، مع أن يوسف قد دعاهم إلى الحق من قبلك ، ولهم عقول لو فكروا بها فى آياتنا لهدتهم سواء السبيل .

١٣ ـ (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى : فلما جاءهم موسى مؤيدًا بآياتنا المعينة على التبصر والهدى ، قالوا ـ معرضين عن التأمل والانتفاع بها ـ : هذا الذى جئتنا به سحر واضح .

ولما كان الذى قالوه مخالفًا لما وقر فى نفوسهم ، عقب الله مقالتهم هذه بقوله :

١٤ ـ (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) :

أى وكذب قوم موسى بالآيات التى أيده الله بها مع تمام وضوحها ، وقد استيقنتها أنفسهم وآمنت بها قلوبهم ، وكان إنكارها بألسنتهم ظلمًا منهم للحق ولأنفسهم ، وتعاليًا عليه وعلى من جاءهم به من عند ربه ، فانظر ـ أيها المتأمل ـ كيف انتهت إليه عاقبة المفسدين حيث أغراهم الله بالدخول فى الطرق التى شقها لبنى إسرائيل فى البحر ، وأغرقهم جميعًا فيه بعد انتهاء عبور بنى إسرائيل ، فبئس مصير المتجبرين .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(عِلْمًا) : إدراكًا لعلوم الدين وأصول الحكم وغيرها .

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) : ورثه فى النبوة والملك .

(عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) :منطق الطير ؛ما تعبر به عن حاجاتها وشئونها من أصوات أو حركات .

(وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ) : مما يحتاج إليه الملك .

التفسير

١٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) :

شروع فى بيان قصة داود وسليمان - عليهما السلام - بعد إجمال الحديث بشأن موسى مع فرعون وقومه ، لتقرير ما تقدم ذكره، من أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - تلقى القرآن من لدن حكيم عليم .

والمراد بالعلم الذى أعطاهما الله إياه : هو علم شريعة الله وسياسة الملك وما يختص به كل منهما من العلوم .

وكان الظاهر أن يقال : (فقالا الحمد لله) بالفاء دون الواو ، كما تقول : أعطيته فشكر ، ولكن التعبير بالواو هنا أبلغ ، لما فيه من الإشعار بأن ما قاله داود وسليمان بعض آثار إيتائهما العلم ، فأضمرت تلك الآثار وعطف عليها الحمد، فكأنه قيل : ولقد آتيناهما

علمًا فعملا به وعرفا حق النعمة فيه ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين [١] .

وفى الآية دليل على أن العلم من أجلِّ النعم ، حيث شكرا الله على إيتائهما إياه، ولم يذكرا معه سواه من سائر النعم التى أنعم الله بها عليهما من الملك وغيره ، فإن العلم هو أساس جميع النعم، وفيها حث للعالم على شكر الله ، وأن لا يتكبر بما أُوتيه من العلم وآثاره على الناس ، فيقول ما قاله قارون : « إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ » [٢] ، كما فيها حث له على أن يعلم أنه وإن أُعطى من العلم ما يفضل به كثيرًا من الناس، فقد فضل الله به غيره عليه ، فإن العلم لا غاية له .

ومعنى الآية : ولقد أعطينا داود وابنه سليمان علمًا بشئون الدين والدنيا يناسب ما أعطينا كليهما من النبوة والملك ، وقال كل منهما : الحمد لله الذى فضلنا بهذا العلم على كثير من عباده المؤمنين الذين لم يعطوا منه مثل ما أعطينا .

١٦ - (وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ) :

المراد من ميراث سليمان داود : أنه صار نبيًّا وملكًا بعده، فوراثته إياه مجاز عن ذلك ، ولم يرث عنه المال، قال - صلى الله عليه وسلم - : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » . رواه أبو بكر وعمر أمام جمع من الصحابة ولم ينكر عليهما أحد ، وهم الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، وأخرج أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا ولكن وَرَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

والمراد من الناس : أهل مملكته ، ومن منطق الطير : لغته التى يتخاطب بها بصوت أو بإشارة ، وكان يعرف لغة الحيوانات والحشرات ، ومن ذلك ما روته هذه السورة من قصة الهدهد والنملة .

---

(١) هذه خلاصة ما قاله الزمخشرى فى التعبير بالواو دون الفاء .

(٢) سورة القصص : من الآية : ٧٨

وقد عرض بعض المفسرين لذكر قصص عن طيور مختلفة فهم لغتها وأصواتها ، ولا تعدو هذه القصص أن تكون مجرد حكايات لم ترد عن الصادق المصدوق ، فلهذا لم نذكرها هنا ، التزامًا بما التزمنا به من الاقتصار فى التفسير على المعنى اللغوى أو المأثور عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو ما قاله السلف مما يتفق مع القواعد الشرعية والمعنى اللغوى ، وحسبنا أن الله ـ تعالى ـ أطلق تعليم سليمان منطق الطير ، وهذا يتناول فهمه للغته ومراداته منها على أوسع نطاق ، هذا أمر خص الله به نبيه سليمان ، وليس من باب الفراسة ولا مجرد الذكاء ، وإنما هو بتعليم الله إياه ذلك ، كما هو صريح الآية الكريمة ليكون ذلك من المعجزات التى أيد الله بها رسالته .

ومعنى الآية : وقام سليمان بعد أبيه مقامه فى النبوة بوحى من الله ، وفى الملك برضا أمته ، وقال تَحَدُّثًا بنعمة الله ، وإعظاما لقدرها ، ودعوة للناس أن يصدقوه فى نبوته بذكر المعجزة التى أيده الله بها ـ قال ـ : يا أيها الناس علمنا الله ـ تعالى ـ لغة الطير التى يتخاطب بها ، وأوتينا من كل شىء يحتاج إليه الملك وتؤيد به النبوة ، كتسخير الشياطين والريح ، وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة ، إن إيتاء العلم والإعطاء من كل شىء لهو الإحسان الواضح من الله رب العالمين ، المقتضى لجزيل الشكر ممن أُنْعِمَ به عليه .

واعلم أن قوله ـ تعالى ـ : « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » إما أن يكون من كلام الله ـ تعالى ـ تعظيمًا للفضل الذى أنعم به على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وإما أن يكون حكاية لكلامهما على سبيل الشكر والاعتراف منهما بعظيم فضل الله عليهما ، لا على سبيل الفخر والمباهاة ، ومثل ذلك كمثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(وَحُشِرَ): الحشر : الجمع . (يُوزَعُونَ) أى : يحبسون ويمنعون من المضى حتى يتلاحقوا ويجتمعوا ، والإيزاع : الحث على الوزع ، وهو الكف والمنع[1] .

(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ) : لا يهلكنكم ، وأصل الحطم : التكسير . (أَوْزِعْنِى) : ألهمنى ، وأصله : من الإيزاع ، وهو الحث على الكف والمنع كما تقدم ، فكأنه قال : حُثَّنِى وَأَغْرِنِى على كف نفسى عن التقصير فى شكر نعمتك .

التفسير

١٧ - (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) :

بين الله فى هذه الآية أن سليمان - عليه السلام - كان له جنود من أصناف ثلاثة : الجن ، والإنس ، والطير ، وهذا شىءٌ خصه الله - سبحانه - به ، استجابة لدعائه الذى حكاه الله بقوله فى سورة (ص) : « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى إِنَّكَ

(١) ومنه قول عثمان - رضى الله عنه - : (ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن)، وقول الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يَزَعْهُ لُبُّهُ وَحَيَاؤُه فَلَيْسَ لَهُ مِنْ شَيْبِ فَوْدَيْهِ وَازِعُ

أَنتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ »[١] .

وقد أضافت هذه الآيات من سورة (ص) الريح إلى جنوده المسخرين له فى هذه السورة ، وبهذا اكتمل له عزٌّ وجاه ليس لأحد من العالمين ، لِحِكَمٍ سنعرض لها – إن شاء الله – عند الكلام على تفسيرها فى سورة (ص) .

وقد بينت الآية هنا أنه حشر له جنود من الأصناف الثلاثة ، ولم تبين الغرض الذى جمعت له ، ولهذا اختلف العلماء فى بيانه ، فقال قائل : إنهم جمعوا ليقاتل بهم من لم يدخلوا فى طاعته ، وقال آخر : بل جمعوا ليذهب بهم إلى مكة ، ليشكر الله – تعالى – على ما وفقه له من بناء بيت المقدس ، والأول هو الظاهر من المقام ، أما الثانى فلا دليل عليه .

وجمع هذه الأصناف مع كفاية الإنس أو الجن ، لإظهار نعمة الله وأبهة الملك وبث الرعب فى قلوب الأعداء .

والظاهر أن المراد من جمعها جمع طائفة من كل نوع ، لا جمعها كلها ، لأن الذين يخرجون للقتال عادة وسياسة هم بعض الجنود لا كلهم ، ويترك الباقون لحفظ البلاد من الأعداء المتربصين .

والظاهر أن الحاشر لكل نوع من الثلاثة أفراد منهم معدون لمثل ذلك ، ولا غرابة فى أن يكون للطير لغة تتخاطب بها ، وإدراك يعى هذا الخطاب ، فالآية صريحة فى أن للطير منطقًا علمه الله سليمان – عليه السلام – .

بل لقد أثبت القرآن ذلك بما لا يدع مجالًا للشك فى جميع الحيوانات ، وذلك فى قوله تعالى : « وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ »[٢] فقد أثبتت الآية أن كل الدواب على الأرض والطيور فى جو السماء ، أمم لها خصائص تماثلنا ، وإن اختلفت فى كيفية هذه الخصائص ومستواها ، والقرآن الكريم لم يقتصر على بيان

---

(١) الآيات : ٣٥ – ٣٨

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨

كونها أممًا أمثالنا ، بل بين أن فيها قادة ينذرونها ويرشدونها ، فقد قال تعالى : « وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »[١] وقد ضرب الله مثلًا لهذا النذير ووظيفته بقوله : « قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ »[٢] .

وقد سبق القرآن الكريم بذلك جميع الكشوف العلمية ، وأيدته المشاهدة ، فالنحل له ملكة تدبر أمره ، وتسوسه ، وبلغ من دقة إدراكه أنه يصنع بيوتًا مسدسة الأضلاع لتجميع عسله فيها ؛ بمقاييس فى غاية الدقة ، واختيار المسدس دون غيره ، لأنه هو الشكل الوحيد الذى لاتوجد فرج بين وحداته داخل الإطار .

وبالجملة فدراسة مملكة النحل وأمته تحير الأفكار ، ومثلها النمل وجميع الكائنات الحية .

ومن أغرب ما نشاهده فى موسم الشتاء بمصر ، تلك الطيور التى تفد علينا من المناطق الشديدة البرودة ، طلبًا للدفء والرزق فى بلادنا ، وفى مقدمة كل طائفة نذيرها ومرشدها وهى تطير على هدى إدراك داخلى أقوى من (الرادار) فى حين أنها لم يسبق لها الحضور إلى بلادنا .

وكثير من الحيوانات يدرك مجىء الزلازل قبل حضورها ، وتكون له حركات تشنجية منذرة بها ، فى حين أن الإنسان لايستطيع أن يدركها بحسه قبل أن تفاجئه .

وقد أيدت الكشوف والدراسات العلمية ما صرح به القرآن العظيم منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا ، فما أعظم القرآن ، وصدق الله إذ يقول فيه : « وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[٣] .

ومن أغرب الكشوف العلمية ، أن للنبات إحساسًا وإدراكًا لما يحدث فيه أو حوله ، فقد صنعت آلة تسجيل على أعلى مستوى من الدقة ، وسجلت أنين الشجرة إذا قطع منها غصن ، أو نقلت شجرة مجاورة لها إلى جهة أخرى .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٢٤
(٢) سورة النمل ، من الآية : ١٨
(٣) سورة فصلت ، من الآية : ٤١ ، والآية : ٤٢

ولا نذهب بعيدًا فى هذا الشأن ، فإن النبات المعروف فى مصر باسم (عباد الشمس) تدور زهرته مع الشمس أينما دارت ، وهناك من النبات ما لو لمست ورقة منه أو نفخت فيها انكمشت ، حتى أطلق البستانيون عليها اسم : المُسْتَحِيَة ، كأنها تستحى عند لمسها أو نفخها فتجمع أوراقها وتضم بعضها إلى بعض : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[1] .

ومعنى الآية : وجُمِع لسليمان جيشُه وعساكره من أماكنها المختلفة ، وكان جيشه مؤلفًا من الجن والإنس والطير ، تعظيمًا لمقامه وإرهابًا لعدوه ، فهم يؤمرون بالكف عن السير حتى يجتمعوا ، فتنتظم صفوفهم وألويتهم طبقًا للنظم العسكرية ثم يؤمرون بالسير .

١٨ ـ (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[2] :

(حَتَّى) :ابتدائية ، وفيها معنى الغاية لما يفهم من الكلام قبلها ، كأنه قيل : فلما اجتمعوا ونُظِّمُوا وأُمروا بالمسير ، فساروا حتى أتوا على وادى النمل . . . إلخ .

ووادى النمل : واد بأرض الشام تكثر فيه النمل ـ كما روى عن قتادة ومقاتل ـ وقيل : واد باليمن معروف عندالعرب ومذكور فى أشعارهم. ولفظ (أَتَى) فى قوله تعالى : « أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ » يتعدى بنفسه ، فيقال : أتى وادىَ النملِ ، أو بإلى ، كقولك : أتى إلى وادى النمل ـ وإنما عُبِّر (بعلى) فى الآية الكريمة ، إما لأن إتيانهم إليه كان من مكان عال ، أو لأن المراد من إتيانهم عليه قطعه كله وبلوغ آخره ، والإتيان بهذا المعنى مجاز عن القرب ، من : قطعه ، ولَـمَّا يقطعوه بَعْدُ ، ولهذا حذرت النملة أُمتها قبل مجيء سليمان إلى مكانها من الوادى ونهتهم بقولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ » ، فقولها هذا : نهى مؤكد بالنون لجماعتها من النمل عن التعرض لتحطيمها من سليمان وجنوده إن لم تدخل مساكنها فى وادى النمل قبل مجيئهم ، وقد أدركت بإلهام الله لها أنهم لو حطموها وهى فى طريقهم فإنما يفعلون ذلك لا عن شعور بها ، كأنها أدركت عصمة الأنبياء عن الظلم بإبادتها ، وذلك منها أدب

---

(١) سورة المؤمنون ، من الآية : ١٤

(٢) يرى القارىء الكريم أن الآية استعملت مع النمل ضمائر العقلاء ، تنزيلا لها منزلتهم لفطنتها .

كريم فى حق سليمان وجنوده ، فلعل الناس يتعلمون حسن الظن بأهل التقوى والأدب معهم كما فعلت هذه النملة .

ومعنى الآية : فسار سليمان وجنوده حتى إذا أتوا على وادٍ يكثر فيه النمل ويعرف به ، قالت رائدته لفصيلتها : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم فى جحوركم ، لاتتعرضُنَّ بالبقاء فوق ظهر الأرض لأن يهلككم سليمان وجنوده وهم لايشعرون بإهلاكهم إياكم .

هذا وننقل فيما يلى (المسألة السادسة) من تعليق القرطبى على هذه الآية الكريمة ؛ لأهميته فيما ذهبنا إليه من أن للحيوانات إدراكات عالية .

قال القرطبى : السادسة – لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول ، وقد قال الشافعى : الحمائم أعقل الطير ، وقال ابن عطية : والنمل حيوان فَطِنٌ شمام جدًّا يدَّخر ويتخذ القُرى ، ويشقُّ الحبَّ قطعتين حتى لا تنبت ، ويشق الكزبرة أربع قطع ، لأنها تنبت إذا قسمت شقين ، ويأكل فى عامه نصف ما جمع ، ويستبقى سائره[1] عُدَّةً ، وقال ابن العربى : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله لها ، قال الأستاذ أبو المظفر شاه نور الإسفرايينى : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ووحدانية الإله ، ولكنا لانفهم عنها ولاتفهم عنا . . . إلخ .

ولعل الأستاذ الإسفرايينى ذهب إلى ذلك استنباطًا من قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[2] . ونحو ذلك مما جاء فى القرآن فى هذا المعنى .

١٩ – (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) :

نقل الآلوسى فى تفسيره لهذه الآية عن ابن حجر أنه قال : التبسم : مبدأ الضحك من غير صوت ، والضحك : انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفى ، فإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة .

---

(١) أى : باقيه .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية : ٤٤

وعلى هذا يكون المعنى : فتبسم بادئًا فى الضحك ، ومن اللغويين من قال : التبسم : ابتداءُ الضحك ، والضحك يشمل الابتداء والانتهاء ، ومنهم من قال : هما سواء ، وعلى الرأيين الأخيرين يكون لفظ (ضاحكًا) حالًا مؤكدة ، والراجح الفرق بين التبسم ، والضحك : والمَبْسِمُ : الثغر ، وهو مقدم الأسنان[1] والتبسم : ضحك الأنبياء فى غالب أمرهم ، وفى الصحيح عن جابر بن سمرة – وقيل له – : أكنت تجالس النبى – صلى الله عليه وسلم – ؟ قال : نعم كثيرًا ، كان لا يقوم من مُصَلَّاهُ الذى يصلى فيه الصبح – أو قال : الغداة – حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ويأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم .

وقد وردت أحاديث تفيد أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يضحك أحيانًا ، والذى يؤخذ من مجموع الأحاديث أن تبسمه كان أكثر من ضحكه ، وأنه ربما ضحك حتى تبدو نواجذه ، لكن من غير قهقهة ، وفى كون التبسم غالب أحواله عند السرور يقول البوصيرى مادحًا :

سَيِّدٌ ضِحْكُهُ التَّبَسُّمُ وَالْمَشْ ... يُ الْهُوَيْنَىٰ ونومُه الإغْفَاءُ

ومعنى الآية : فتبسم سليمان – عليه السلام – من أجل قولها ، سرورًا بما ألهمها الله إياه من حسن حاله وحال جنوده ، وابتهاجًا بما خصه الله به من سماع قولها وإدراك مقصدها منه ، وتعجبًا من حذرها وتحذيرها جماعتها وإدراكها مصالحها ، وقال : يارب ألهمنى أن أشكر ما أنعمت به عَلَيَّ وعلى والدىَّ من جلائل النعم الدينية والدنيوية ، واكفُفْنى عن التقصير فى شكرها ، ووفقنى إلى أن أعمل صالحًا ترضاه من مثلى ، وأدخلنى برحمتك فى جملة عبادك الصالحين الذين هم أهل لرضوانك والفوز بجناتك ، يقول ذلك هضمًا لنفسه ووالديه واعتبارهم مقصرين عن درجة الصالحين مع أنه وأباه داود – عليهما السلام – من خيرة المرسلين ، وأمه زوجة نبى وأم نبى ، فكيف لا يكونون فى قمة الصالحين ، ولكنه تواضع الكاملين – عليهم السلام – .

---

(١) وفعله بسم يبسم كجلس يجلس ، وأطلق التبسم على أول الضحك ؛ لأنه يبدو فيه ما تقدم من الأسنان .

(وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ) : تعرف موجوده من مفقوده .

(الْهُدْهُدَ) : طائر معروف ، ويكنى بأَبى الأخبار .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : بحجة واضحة تبين عذره .

(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ) : فلبث زمانًا غير مديد .

(بِنَبَإٍ يَقِينٍ) : بخبر حقيقى .

التفسير

٢٠ - (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ) :

أصل التفقد : التعرف على المفقود ، والمراد منه هنا : استعراضه الطير والنظر إليها ليعرف موجودها من مفقودها ، والطير : اسم جمع يطلق على الواحد والمتعدد ، والمراد هنا : جنس الطير وأنواعه ، وكانت تصحبه فى سفره وتظله بأَجنحتها ، ولذا استعرضها ونظر إليها ، ليتعرف أحوالها .

ونقل ابن كثير عن ابن إسحاق : أن سليمان - عليه السلام - كان إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان - فيما يزعمون - يأْتيه من كل صنف من الطير طائر كل يوم ، فنظر فرأى من أصناف الطير ما حضر ، إلا الهدهد ، فقال : « مالِىَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ » أخطأَه بصرى بين الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟ :اهـ

ونقل الآلوسى عن عبد الله بن سلام أن سليمان - عليه السلام - نزل بمفازة لا ماء فيها ، وكان الهدهد يرى الماء فى باطن الأرض فيخبر سليمان بذلك ، فيأمر الجن فتكشف الأرض عن الماء ، فاحتاجوا إلى الماء فتفقد الطير لذلك فلم ير الهدهد فسأل عنه .

ونقل القرطبي عن أبي مجلز أن ابن عباس قال لعبد الله بن سلام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل ، قال : أتسألنى وأنت تقرأ القرآن ؟ قال : نعم - ثلاث مرات - فقال : لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير ؟ قال : احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه ، وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير . وقد أخذ ابن عباس بما قال ابن سلام . قال مجاهد : قيل لابن عباس : كيف تفقد الهدهد من الطير ؟ فقال : نزل منزلًا ولم يدر ما بُعْدُ الماء ، وكان الهدهد مهتديًا إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت : كيف يهتدى والصبى يضع له الحبالة فيصيده ؟ فقال : إذا جاء القدر عمى البصر . قال ابن العربى : ولا يقدر على هذا الجواب إلّا عالمُ القرآن .

ونحن نقول : إن صَحّت هذه الفراسة عن الهدهد ، فذاك شأن آخر يختلف عن وقوعه حبيسًا فى الفخ ، فإن فراسته بحسب تكوين الله لا تمتد لإدراك الغيب الذى كتبه الله عليه ، فإنه مستقبل ، أما الماء فهو موجود تحت الأرض وإن كان خفيًا ، والموجود يدرك بالإحساس الداخلى لبعض الحيوانات ، كالكلاب تدرك الزلازل بأسباب تحسها داخليًا ، ولكنها لا تدرى أن الطعام الذى قدمه الصياد لها مسموم ليقتلها به ، وبالجملة فمناهج التكوين الإلٰهى لخليقته عجيبة ، فسبحان الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

ومعنى الآية : ونظر سليمان - عليه السلام - إلى جنوده من الطير ، ليتعرف ما حضر منها وما غاب دون استئذان منه ، فلم ير الهدهد فى جملة الطير التى تظله وتعلوه ، فقال : ما الذى جعلنى لا أراه ؟ أهو موجود بين أنواع الطير ولكنى لا أراه ؟ ثم لاح له أنه غائب فقال متسائلا : بل أكان من الغائبين ، ولما تحقق له غيابه توعده قائلا :

٢١ - (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

أى : لأعذبنه على غيابه دون استئذان منى عذابًا شديدًا ، بنحو نتف ريشه وتجويعه ، أو لأذبحنه أو ليأتينى بحجة قوية مبينة لعذره فى تغيبه عن مكانه بين سائر أنواع الطير .

وإتيانه بسلطان مبين ليس من جملة المحلوف عليه ، فقد حلف على عقابه بالتعذيب أو الذبح ، أما قوله : أو ليأتيني بسلطان مبين ، فهو فى قوة الاستثناء ، فكأنه قال : إلَّا أن يأتينى بسلطان مبين فلا أعذبه ولا أذبحه ، لأن سليمان لا يقسم على فعل الهدهد ، قال الآلوسى : إن هذا الشق ليس مقسمًا عليه فى الحقيقة ، وإنما المقسم عليه الأولان ، وأدخل هذا فى سلكهما للتقابل ، وهذا ـ كما فى الكشف ـ نوع من التَّغْليب لطيف المسلك ، ومآل كلامه ـ عليه السلام ـ : ليكونن أحد الأمور الثلاثة ، على معنى : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما ، فأَوْ فى الموضعين للترديد : انتهى كلام الآلوسى .

٢٢ ـ (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) :

(سَبَإٍ) قرأه الجمهور مصروفًا ـ أى : منونًا ـ على أنه اسم لِحىٍّ من الناس سموا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (مِن سَبَأَ) ـ بفتح الهمزة غير مصروف ـ على أنه اسم للقبيلة ، ثم أطلق على الإقليم أو البقعة التى يعيشون فيها بأرض اليمن .

ومعنى الآية : فمكث الهدهد زمانًا غير بعيد خوفًا من سليمان ـ عليه السلام ـ ثم عاد وقال لسليمان ـ عليه السلام ـ مبينًا سبب تخلفه عن مكانه بين الطير : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، وجئتك من سبأ بخبر حقيقى لا ريب فيه .

واختار الهدهد هذا الأسلوب فى ابتداء كلامه ، لترغيبه فى الإصغاء إلى اعتذاره ، واستمالة قلبه نحو قبوله ، فإن النفس يشتد إقبالها على تلقى ما لم تعلم ، وتميل إلى قبول عذر من أتاها به بعد غياب دون إذن .

وقال الإمام البيضاوى : وفى مخاطبته إياه بذلك تنبيه على أن فى خلق الله ـ تعالى ـ من أحاط علمًا بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر لديه علمه .

ويقول البيضاوى فى سبب غياب الهدهد : روى أنه ـ عليه السلام ـ لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج ، فوافى الحرم ، وأقام به ما شاء ، ثم توجه إلى اليمن ، فخرج من

مكة صباحًا فوافى صنعاء ظهيرة ، فأعجبته نزاهة أرضها ،فنزل بها فلم يجد الماء ، وكان الهدهد رائده ؛ لأنه يحسن طلب الماء ، فتفقده لذلك فلم يجده ، إذ حلّق حين نزل سليمان ، فرأى هدهدًا واقعًا فانحط إليه ، فتواصفا وطار معه لينظر ما وصَفَ له ، ثم رجع بعد العصر ، وحكى ما حكى . ا هـ .

ونحن نقول : الله أعلم بحال تلك الرواية ، ألها أصل أم هى من الحكايات التى ليس لها دليل ؟

(إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(عَرْشٌ عَظِيمٌ) : العرش ؛ سرير الملك . (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ) : أى فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله . (يُخْرِجُ الْخَبْءَ) : الخبء ؛ ما خفى فى غيره ، وإخراجه : إظهاره .

التفسير

٢٣ - (إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) :

بعد أن شوق الهدهد سليمانَ إلى معرفة السر الذى غاب عن مجلسه من أجله بقوله : « أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » بعد أن شوقه إلى ذلك عقبه ببيان هذا السر الذى حكته هذه الآية .

والمرأة التى كانت تملك سبأ اسمها (بلقيس بنت شراحيل) كما يقول المؤرخون والمفسرون ، فقد كانت ملكة عليهم وحاكمة لهم فى إقليم مأرب ، وقد كانت المسافة بين معسكر سليمان فى صنعاء، وبين مأرب مسيرة ثلاث ليال ـ كما ذكره القرطبى ـ فكيف خفى أمرها على سليمان وجنوده من الإنس والجن ؟ والجواب : أن الله أخفى أمرها لمصلحة ستعرف من قصتها ، كما أخفى أمر يوسف على يعقوب ليجده فى النهاية حاكم مصر وسيدها المطاع .

والمراد من إيتائها من كل شىء : أن الله ـ تعالى ـ أعطاها من أسباب قوة الملك ما جعل لها سلطانًا قويًّا على قومها وبين جيرانها .

وقد ذكر المفسرون فى وصف طول عرشها وعرضه وارتفاعه وجواهره أمورًا عجيبة لم نجد لها أصلًا فتركنا ما قالوه اكتفاء بوصفه فى الآية بأنه عظيم ، والله أعلم بعظمته كيف كانت .

ومعنى الآية : إنِّى وجدت امرأة عظيمة العقل والجاه تملك قومها سبأ وقد أعطاها الله من كل شىء يحقق لها السيطرة على قومها ، والعزة والجاه فيما حولها ، ولها سرير عظيم تجلس عليه فى أبهة الملك ، حينما يلقاها عظماءُ قومها أو سواهم .

وقد أثار المفسرون لهذه الآية مسألة حكم المرأة وقضائها فى كتب التفسير الموسعة ، وبخاصة التى تعنى بالأحكام الفقهية ، وانتهوا إلى أنها لا تلى شيئًا من ذلك ، مستندين إلى ما رواه البخارى من حديث ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمَّا بلغه أن أهل فارس قد ملَّكوا بنت كسرى قال : « لن يفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة » .

٢٤ ، ٢٥ ـ (وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) :

تحكى الآية السابقة بأسلوب الاستئناف ، وهاتان الآيتان بعدها بقية ما رواه الهدهد لسليمان ـ عليه السلام ـ عن مملكة سبأ .

والمعنى : وجدت هذه الملكة وقومها يسجدون للشمس عابدين لها ، متجاوزين عبادة الله معرضين عنه ، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم المجافية للحق فى العقائد والسلوك ، فصرفهم عن السبيل الموصلة إليه ، فهم لأجل ذلك لا يهتدون إلى الصواب ـ صرفهم ـ لئلاً يسجدوا لله الذى يظهر الخفى فى السموات ، فيجعل الكواكب التى أخفاها النهار تبدو فى الليل ، والشمس التى أخفاها الليل تبدو بالنهار ، والأمطار المحبوسة فى الفضاء تبدو بهطولها ، وغير ذلك مما يكشفه الله من أسرارها ، ويظهر ما اختبأ فى الأرض من الكنوز التى لا تحصى أنواعها ، والنبات الذى لا تعد أجناسه وخصائصه وغير ذلك مما يكشفه لنا من خباياها ، ويعلم ما يخفيه هؤلاء الذين يعبدون الشمس وما يظهرونه ، وليس للشمس شئ من ذلك ، فهى مسخرة لله تعالى ، فكيف ينصرفون عن عبادته إلى عبادتها ؟

٢٦ ـ (اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) :

هذه الآية تحكى آخر ما ذكره الهدهد لسليمان بشأن غيابه عنه دون إذن ، وهى ـ كالتعليل لوصفه الله ـ عز وجل ـ بالقدرة على إخراجه الخبء فى السموات والأرض ، وعلمه بأحوال من يعبدون الشمس من دونه .

والمعنى : الله لا معبود بحق إلَّا هو ، رب العرش العظيم الذى لا حد لعظمته ، فكيف تركوا عبادته لعبادة الشمس التى هى من مقدوراته ومخلوقاته ؟

والعظيم ـ بالجر ـ وصف للعرش ، ويكفى فى الدلالة على عظمته ، أن الكرسى الذى وسع السموات والأرض بالنسبة للعرش كحلقة فى فلاة ، كما ورد فى السنة ـ فأين عظمة عرش ملكة سبأ من عظمة عرش الرحمن ـ سبحانه وتعالى ـ ؟

وبعد ، فإن الإنسان ليقف مبهوراً أمام قصة هذا الهدهد ، كيف استطاع أن يتعرف على أحوال مملكة سبأ وعقائدها بهذه الدقة ، وأن يلومهم على تركهم عبادة الله إلى عبادة الشمس ، مع أنها وعابديها تحت سلطانه وعلمه ـ جل وعلا ـ .

وإن المرء ليعجب من وصول الطير فى العلم بالله إلى هذه الدرجة ، فى حين أن بعض البشر لم يصلوا إلى مثلها ، ولا نجد شيئاً نقوله أمام هذه العجائب خيرا من قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا »[1] .

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٤٤

* (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(سَنَنظُرُ) : من النظر ؛ بمعنى التأمل ، أى : سنتحرّى ونتحقق .

(أَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) : ادفعه إليهم وأوصله لهم . (تَوَلَّ عَنْهُمْ) : تَوَارَ وتَنَحَّ إلى مكان تغيب فيه عن أبصارهم . (فَانظُرْ) : فانتظر أو تعرَّف .

(مَاذَا يَرْجِعُونَ) : أى ؛ بماذا يجيبون ، ويرد بعضهم على بعض فى شأن الكتاب .

التفسير

٢٧- (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ . . .) الآية .

كلام مستأنف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد .

كأنه قيل : فماذا فعل سليمان – عليه السلام – بعد اعتذار الهدهد ؟

فقيل : قال : سننظر .

والمعنى : قال سليمان – عليه السلام – ردًّا على الهدهد فيما اعتذر به عن غيابه عن مكانه بين الطير بغير إذنه – قال – : سَنتَحرى ونعرف أصدقت فيما قلت ؟ أم أنك كنت من جملة أهل الكذب المعنين فيه ؟ والعدول عن التعبير بقوله : أصدقت أم كذبت إلى قوله : (أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) للإيذان بأن كذبه بهذا الأسلوب المنسق ، ومع نبى الله سليمان يقتضى إيغاله فى الكذب ، وانتظامه فى سلك المتعمقين فيه إن لم يكن له ما يصدقه .

وفى هذا الأسلوب دليل على أن الإمام يجب عليه أن يتحرى عند الاعتذار قبل أن ينزل العقوبة بمن ظاهره الخطأ ، فربما كان صادقًا فى اعتذاره ، وفى الصحيح : « لا أحد أحب إليه العذرُ من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل » .

٢٨ - (اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا . . .) الآية .

الأمر بالذهاب للهدهد ، واختصه به لأنه صاحب العذر . وقوله : « كِتَابِي هَٰذَا » يدل على أن سليمان - عليه السلام - أعدّ الكتاب بعد أن أخبره الهدهد بقصة أهل سبأ .

والمعنى : توجه بكتابي هذا الحاضر بين يدىّ إلى الملكة بلقيس ومنهم على دينها من قومها فألقه إليهم ، وادفعه لهم ، ثم تَنَحّ عنهم إلى مكان تختفى فيه عن أبصارهم وتسمع كلامهم ، ثم انظر وتعرف ما يجيبون ، ومايرد بعضهم به على بعض ، وما يجرى بينهم من مراجعة وحوار حول مضمون هذا الكتاب .

وقد جرى الأسلوب بضمير الجمع لأن مضمون الكتاب دعوتهم جميعاً إلى الإسلام وفى قوله : « ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ » توجيه إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه الرسل فى معاملة الملوك ، مع تنبيههم إلى اليقظة ، وحدة الانتباه .

(قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) : أشراف القوم وأصحاب الرأى فيهم .

(كَرِيمٌ) : لكرم مضمونه ، أو لشرف مرسله . (تَعْلُوا عَلَيَّ) : تتكبروا وتتجبروا .

(مُسْلِمِينَ) : مؤمنين ، أو منقادين طائعين .

التفسير

٢٩ - (قَالَتْ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) :

روى أن سليمان - عليه السلام - كتب كتابًا ، وختمه بخاتمه ، ودفعه إلى الهدهد ليحمله إلى بلقيس ، فطار به إليها ، وألقاه من كوة فى بيتها ، فقرأته ولم تذكر

هذه التفاصيل ، جريًا على عادة القرآن من الاقتصار على الضرورى للعبرة ، وترك ما هو بدهى ، وللإيذان بكمال مسارعة الهدهد إلى تحقيق ما أُمر به .

والمعنى الإجمالى : قالت الملكة لأشراف قومها ، بعد أن أخذت الكتاب وقرأته ، ورأت ما رأت من أمر الهدهد فى دخوله وإلقائه الكتاب إليها وتنحيه ، وغير ذلك مما يعرب عن عظمة مرسله ، قالت : يا أيها الأشراف من قومى إنِّى أُلقِى إلىَّ كتاب كريم فى شرفه وشرف مرسله وعلو مكانه .

وفسَّر ابن عباس وغيره الكريم هنا بالمختوم ،وهومعنى لغوى ، فكرمُ الكتاب ختمه .

وفى شرح أدب الكاتب لابن المقفع يقال : أكرمت الكتاب فهو كريم ، إذا ختمه وقال ابن المقفع : « من كتب إلى أخيه كتابًا ، ولم يختمه فقد استخف به » .

٣٠ ، ٣١ - (إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَن لَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَائْتُونِي مُسْلِمِينَ) :

أى : إن هذا الكتاب من سليمان نبى الله ، وإن مفتتحه « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » ولم يسبق بها كتاب قبله ، وإن مضمونه ألَّا تعلوا على وائتونى خاضعين ولا تتكبروا وتتجبروا وتأخذكم العزة بالإثم فتجنحُوا إلى العصيان والتمرد ، أو ائتونى مسلمين ، مؤمنين بدعوتى طائعين منقادين لرسالتى ، ففى هذا أمنكم ، وأمانكم ، وسلامة دنياكم وسعادة آخرتكم .

وجاء الكلام فى هذه الآية مؤكدًا (بإنَّ) كما جاء مؤكدًا قبل ذلك بها فى قوله : « إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ » - اعتناء بشأن الكتاب ، واهتمامًا بسموّ مضمونه .

(قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(أَفْتُونِى) : أشيروا علىّ بما عندكم من الرأى . (قَاطِعَةً) : قاضية وفاصلة .

(تَشْهَدُونِ) : تحضرونني وتدلون بآرائكم . (أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ) : وفرة فى العدد .

(وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ) : نجدة مفرطة ، وبلاء فى الحرب .

(وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ) : والرأى فى بتّ الأمور إليك موكول .

التفسير

٣٢ - (قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ) :

قالت بلقيس للملأ من قومها وأشرافهم وهم شهود فى مجلسها : يا أيها الملأُ أفتونى وأشيروا علىّ بما عندكم من الرأى فى هذا الأمر الخطير الذى جاء برسالة سليمان ، وقد اعتدت أن أسمع رأيكم، وأنتفع بمشورتكم فى كل ما يحدث لى ، ويجدّ فى ملكى ، ما كنت أقطع فى أمر ولا أقضى فيه حتى تحضروا وتشيروا فيه برأيكم، وتكرر نداؤها للملإِ من قومها مع وحدة الموضوع ، اهتمامًا بالأمر ، وجذبًا لانتباههم وإثارة لأفكارهم .

٣٣ - (قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ) :

أى : قال الملأُ من قومها ، وقد فهموا أنها تهدف من كلامها إلى الاستيثاق من تأييدهم والاطمئنان على مدى استعدادهم لنصرتها ، والوقوف إلى جانبها إذا رأت عصيان الدعوة ومقاومتها .

قالوا : نحن أصحاب قوة فائقة ، فى العَدَدِ والعُدَد ، وأصحاب شدة وبلاء فى الحروب لا ترهبنا قوة ، ولا ينهنهنا وعيد ، وهذا دورنا وهذه مهمتنا ، وأما البت

فى الأُمور فهو موكول إليك تقضين فيه بما تشائين سلمًا وحربًا ، ولك علينا الطاعة فى كل ما تريدين ، وما تأْمرين ، فانظرى أَى شىء ترينه وتأْمرين به نكن فى طاعتك .

(قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً) : أَى دخلوها محاربين . (أَفْسَدُوهَا) : خربوها وقلبوا أَوضاعها وأَتلفوا عمرانها . (أَذِلَّةً) : مُهَانينَ بالقتل ، والأَسر ، والإِجلاءِ عنها ، جمع ذليل .

(هَدِيَّة) : عطية عظيمة ، والهدية : اسم لما يهدى ، كالعطية : اسم لما يعطى .

التفسير

٣٤ - (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا . . .) الآية .

قالت بلقيس - تعليقًا على ما قاله الملأُ من قومها وقد أَحست من لحن قولهم وفحواه الميل إلى الحرب ، والعدول عن سَنَن الصواب ، فأَرادت ردهم إلى الرشاد - قالت : إن شأْن الملوك وسلوكهم إذا فتحوا قرية - أَية قرية - وغلبوا أَهلها خربوها ، وأَتلفوا ما فيها من أَموال ، ونكسوا أَحوالها ، وجعلوا أَعزة أَهلها وسادتها أَذلة مُهَانين بالقتل ، والأَسر والإِجلاءِ وغير ذلك من صنوف الإِهانة والإِذلال .

وقوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) يحتمل أَن يكون من كلام بلقيس تدعيمًا لرأْيها ، وتأْكيدًا لما وصفته من حال الملوك الفاتحين ، وتقريرا بأَن ذلك من سياستهم المستمرة وسلوكهم الدائم . ويحتمل أَن يكون من جهته - عزَّ وجلَّ - تصديقًا لقولها على ما أَخرجه ابن أَبى حاتم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - .

٣٥ - (وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ . . .) الآية .

هذه الآية تتميم لكلامها مع الملأ من قومها الذى أرادت به أن تنبئهم بما استقر فى ذهنها من أمر سليمان - عليه السلام - الذى سخر الله له الجن ، والطير يرسلها إلى ما يشاء ، وأنه من القوة بحيث يغلبهم على أمرهم إذا قاتلوه ، فيفسد القرى ، ويذل الأعزة وختمت رأيها بقولها : « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ » عظيمة حافلة تليق بالملوك ، تشبع نهمهم وتطفىء نار حقدهم ، وتطمعهم فى الصداقة ، وتغريهم بالمودة ، روى أنها قالت لقومها : إن كان ملكا دنيويا أرضاه المال ، وعملنا له بحسب ذلك ، وإن كان نبيا لم يرضه المال وينبغى أن نتبعه على دينه . اهـ وجاء فى ابن كثير عن ابن عباس وغير واحد أنها قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

وقوله تعالى حكاية عنها : (فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) معناه : فمنتظرة بعد وصول الهدية إليهم ، واطلاعهم عليها - بأى شىء يرجع إلىّ المرسلون بالهدية فأعمل بما يقتضيه الأمر ، نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال : ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها ..

(فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(أَتُمِدُّونَنِ) : تساعدوننى . (لَا قِبَلَ لَهُمْ) : لا طاقة لهم بلقائها ، وأصل الْقِبَلِ : المقابلة ، ثم جعل فى الطاقة . (صَاغِرُونَ) : مهانون أذلة .

التفسـير

٣٦ - (فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ[١] بِمَالٍ فَمَآ آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) :

أى : فلما جاء الرسولُ سليمانَ - عليه السلام - بالهدية قال - موجهًا الكلام إليه وإلى من معه وإلى المُرْسِل إنكارًا عليهم ، وتوبيخا لهم - : أتعطوننى مالًا وعندى منه ومن غيره كثير ، فما أعطانى الله من الملك والمال والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أطمع فى مال ولا أفرح به ، بل أنتم الذين تفرحون بالمال الذى يهدى إليكم وتحرصون عليه ، وتطيب نفوسكم به لقصر همتكم على الدنيا ، وحبكم الزيادة فيها ، والمكاثرة والمفاخرة بها .

٣٧ - (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّاقِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) :

من جملة كلام سليمان - عليه السلام - لرسول بلقيس ، وأفرده بالذكر لاختصاصه بالرجوع . دون من كان معه من المرسلين .

والمعنى : ارجع - أيها الرسول - إلى بلقيس ، وقومها بالهدية ، وبلغهم مقالتى بشأنها ، ووجوب استسلامهم إلينا ، فإن لم يأتوا مسلمين فوالله لنأتينهم ، ولندفعن إليهم بجنود لا طاقة لهم بلقائها ولا قوة لهم على قتالها ، وليكونن لنا الغلب عليهم ، ولنخرجنهم من مملكتهم سبأ أذلة مهزومين وهم صاغرون أسارى مستعبدون .

---

(١) قرأ هكذا حفص بحذف ياء المتكلم تخفيفاً .

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

المفـردات :

(عِفْرِيتٌ) : مارد خبيث ، ويقال له : عِفْرية وَعِفْر . (لَقَوِىٌّ) : لقادر لا يثقلنى حمله .

(أَمِينٌ) : لا أختلس ولا أغيّر فيه . (مِن مَّقَامِكَ) : من مجلسك الذى تجلس فيه للقضاء ، أو من جلستك . (لِيَبْلُوَنِى) : ليختبرنى .

التفسير

٣٨ - (قَالَ يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ) :

هذا القول يقتضى قولًا آخر يرشد إليه سياق القصة ؛ أى : فرجع الرسول بالهدية إلى بلقيس ، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان فعرفت أنه نبى لا طاقة لها بقتاله ، وتجهزت للمسير إليه ، وعلم سليمان بخروجها إليه فقال : « يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا » أى : يحضره عندى على حاله التى هو عليها قبل أن تأتينى هى وقومها منقادين طائعين ؟

وإنما طلب سليمان ـ عليه السلام ـ إحضار العرش قبل أن يأتوه مسلمين ليريها القدرة التى مكن الله ـ تعالى ـ له فيها ، والآيات التى أيده بها ، فأراد أن يُغْرب عليها ، ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده .

وقيل : أراد ـ عليه السلام ـ من إحضار العرش أن يختبر عقلها ، ودقة إدراكها للأُمور فيعرضه عليها بعد أن يغير من معالمه ، وَيُبَدِّل فى أوضاعه ، فيرى أتعرفه أم تنكره ؟ وما قيل من أنه ـ عليه السلام ـ أراد أن يتملكه قبل أن يعصم الإسلام أنفسهم ، وأموالهم ، لا يناسب مقام النبوة ، ولا يتواءم مع موقفه من الهدية ، والتحدث بنعمة الله ـ تعالى ـ عليه .

٣٩ ـ (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) :

أى : قال خبيث مارد من الجن مجيبًا سليمان ـ عليه السلام ـ : أنا أُحضره لك قبل أن ينفض مجلسك الذى تجلس فيه للقضاء من أول النهار إلى الظهر ، كما قيل ، أو قَبْل أن تنهض من جلستك هذه التى تجلسها ، وإنى على إحضاره لك لقوى متمكن لا يثقلنى حمله ، أمين لا أختلس منه ولا أُغير فيه .

٤٠ ـ (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..) الآية .

أى : قال الذى عنده علم من الكتاب ، بعد أن سمع مقالة العفريت ، وكأنه رأى أن التوقيت الذى وقّته بعيد بالنسبة لما يُحسُّه فى نفس سليمان ـ عليه السلام ـ قال : أنا آتيك به قبل أن يرجع إليك بصرك الذى تمدّه فى الفضاء لتنظر شيئًا بعيدًا أمامك .

والذى عنده علم من الكتاب قيل : هو آصف بن برخيا وزير سليمان ، وقيل : الخضر ـ عليه السلام ـ وقيل : جبريل ـ عليه السلام ـ أو ملك أيده الله به .

وقال الجبائى : الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، وكان التعبير بهذا الأُسلوب للدلالة على شرف العلم ، وأن هذه الكرامة كانت بسببه ، ويكون الخطاب فى قوله : « أَنَاْ آتِيكَ بِهِ » للعفريت لأنه تصدى لدعوى القدرة على الإتيان به من بين الحاضرين ، وإنما لم يأْت سليمان بالعرش ابتداءً ، بل استفهم ، ثم قال ما قال وأتى به ليريهم أنه يتأَتى له ما لا يتهيأُ لعفاريت الجن ، فضلًا عن غيرهم ، وقد استظهر هذا القول لوجوه :

أولًا : أن الموصول موضوع فى اللغة لشخص معين بمضمون الصلة المعلومة عند المخاطب ، وهذا هو سليمان ـ عليه السلام ـ .

ثانيًا : إحضار العرش فى تلك اللحظة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لأحد من أمته دونه لاقتضى تفضيله على سليمان ، وهذا غير جائز .

ثالثا : لو افتقر سليمان فى إحضاره إلى أحد من أمته لاقتضى قصورَ حَاله فى أعين الناس .

رابعًا : وأخيرا أن قوله ـ عليه السلام ـ : « هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى » يقتضى أن ذلك الخارق قد أظهره الله بدعائه ـ عليه السلام ـ .

وسواءٌ أكان الذى عنده علم من الكتاب سليمان أم غيره ، فإحضار العرش على هذه الصورة مثل عال لقدرة الله ـ تعالى ـ أظهره إمًّا معجزة لنبى ، أو كرامة لولى وهذا فضل الله يؤتيه من يشاءُ .

وقوله تعالى : (فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى) :معناه ؛ فلما رأى سليمان ـ عليه السلام ـ العرش حاضرًا أمامه ، قارًّا فى موضعه حيث أراد ، قال : هذا النصر والتمكين مما تفضل به علىَّ ربى ليتعبدنى ويختبرنى أأشكر نعمته علىَّ أم أكفرها ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ؛ لأن نفع ذلك يعود عليه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها ؛ لقوله تعالى : « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » والشكر قيد النعمة الموجودة ، وصيد للنعمة المفقودة ، ومن كفر فلم يشكر النعمة ، وأبطرته ، فإن الله غنى عن شكره ، كريم فى تفضله على خلقه ، يرزق البار والفاجر والشاكر والكافر ، وحسابهم يوم تبلى السرائر .

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا) : غيروا هيئته ، وبدِّلوا أوضاعه . (صَدَّهَا) : منعها وردها .
(نَنظُرْ أَتَهْتَدِى) : نعرف من أمرها وحالها أتهتدى إليه ؟

التفسير

٤١ - (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) :

قال سليمان - عليه السلام - بعد أن رأى العرش مستقرا ثابتًا أمامه - قال - لمن حوله من الجنود والأتباع : غيروا لبلقيس معالم عرشها ، وبدلوا أوضاعه بحيث تختلف فيه الرؤية ، ويختلط النظر لنعرف ونعلم من حالها ، أتهتدى إلى أنه عرشها ، ولم يضللها التنكير والتبديل ؟ « أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » : أى أم تكون من ضعف الملاحظة ، ودقة الإدراك بحيث لا تعرفه ، فتكون من جملة الذين لا يهتدون إلى الجواب الصواب ، وإدراك دقائق الأمور ، روى عن ابن عباس وغيره أن تنكيره كان بالزيادة والنقص فيه ، وقيل : بغير ذلك .

٤٢ - (فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) :

أى : فلما جاءت بلقيس سليمان - عليه السلام - ومثلت عنده ، والعرش مستقربين يديه قد جرى فيه من التنكير والتغيير ماأمر به ، قيل لها على سبيل الاختبار : « أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ » ؟ أى : انتبهى ودققى النظر ، أمثل هذا عرشك الذى تركته ببلادك ، وتحفظت عليه بكل أساليب التحفظ ؟

ولم يكن السؤال : أهذا عرشك بغير كاف التشبيه ، زيادة فى إبهام أمره عليها . ولم يصرح بالقائل لها لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، ولأن السؤال سؤال تعمية وتلبيس لا يجمل معه ذكر السائل ، وكان جوابها : « كَأَنَّهُ هُوَ » غاية فى دقة الفكر ، وكمال رجاحة العقل ، حيث لم تقطع بأنه هو ، أو ليس هو ، فضلًا عمَّا فيه من مواءمة مافى السؤال من الإبهام والإعجام .

وقوله تعالى : (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) : يحتمل أن يكون من كلام بلقيس على ما اختاره جمع من المفسرين ، كأنها استشعرت من سؤالها اختبارهم لها فأجابت بما يفيد أنها أُوتيت قبل هذه المعجزة أو هذه الحالة العلم بكمال قدرة الله تعالى ، وصدق نبوة سليمان بما شاهدت من أمر الهدهد ، وما سمعت من أخبار رسلها ، وكانت مؤمنة بهذه الرسالة منذ ذلك الوقت ، وقيل : إن الكلام من قوله : « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ » إلى قوله : « مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ » مقول على لسان سليمان وقومه ، كأنهم لمَّا سمعوا جوابها : « كَأَنَّهُ هُوَ » استحسنوه ، وقالوا : أصابت ، وعلمت قدرة الله ، وصحة نبوة سليمان وقد أُوتينا العلم بذلك من قبلها وكُنَّا به مسلمين ، كما قالوا ما تضمنته الآية التالية ، والأول هو الظاهر .

٤٣ – (وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ) :

أى : وصد بلقيس عن تعجيل إظهار إسلامها وتصديقها برسالة سليمان ما كانت تدين به من عبادة فى الكفر ، متأصلة فى الوثنية ، فلما حضرت إلى سليمان ، وأمنت بطش قومها أعلنت إسلامها ، وأظهرت ما كانت تضمره منذ ظهرت لها المعجزات .

(قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(الصَّرْحَ) : القصر ، وكل بناء عال ، ومنه : ابْنِ لِي صَرْحًا ، وقيل : صحن الدار .
(لُجَّةً) : ماء كثيرًا غامرًا . (مُمَرَّدٌ) : مُمَلَّسٌ . (قَوَارِيرَ) : زجاج ، جمع قارورة .

التفسير

٤٤ - (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا) :

كلام مستأنف بعد الفراغ من امتحانها السابق . كأنه قيل : فماذا كان بعد امتحانها ؟ وطوى ذكر القائل على حد طيه فى قوله : « قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ » .

والمعنى : قيل لبلقيس بعد أن أدت الامتحان الذى أُريد لها ، وظهرت رجاحة عقلها ودقة إدراكها للأُمور - قيل لها - : ادخلى القصر .

وقد قيل : إن سليمان - عليه السلام - كان قد أمر الجن قبل قدومها فبنوا لها قصرًا على طريقها من زجاج أبيض أملس ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فى الماء ما يكون فيه عادة من حيتان وأصداف ، ووضع سريره فى صدره ، فجلس عليه ، ليزيدها استعظامًا لأمره ، وتحققًا من نبوته ، وثباتًا على الدين ، وما قيل من أنه ذكرت عنده بأنها شَعْرَاءُ[1] فأراد بذلك تعرف حالها ، يجافى مقام النبوة وقداسة الأنبياء ؛ وقوله تعالى : « فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً » معناه : فلما رأت القصر ، وعاينت هيئته وأحواله ظنته ماء غَمْرًا فكشفت عن ساقيها ، فعل من يريد خوض

(١) أى : فى ساقيها شعر .

الماء حذرًا من أن يبتل طرف ثوبها ، ورأى سليمان منها ذلك ، وأحس دهشتها وحذرها وقال لها : إنه صرح مملس من زجاج أبيض صاف ، فلا تحذرى ولا تخافى بللًا . قالت بلقيس وقد رأت هذه القدرة الفائقة ، والنعمة السابغة على سليمان ــ قالت ــ : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى » : بقيامى على عبادة الشمس ، وتأخير إسلامى ، وأسلمت لله رب العالمين مع سليمان تابعة له .

وفى التعبير بقوله : « لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » دون : (وأسلمت مع سليمان لك) حسب ما يقتضيه سياق الأسلوب ، التفاتٌ إلى الاسم الجليل ، ووصفه بربوبيته العالمين لإظهار ما تم لها من كمال معرفتها الألوهية ، واعتزازها بربوبيته ، وتأكيدًا لاستحقاقه التوحيد والعبادة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(السَّيِّئَة) : المراد بها : التكذيب ، أو العقوبة التى تسئ .

(الْحَسَنَة) : التصديق ، أو التوبة .

(اطَّيَّرْنَا) : تشاءمنا ، وأصله : تَطيَّرنا ، قلبت التاءُ طاءً وأُدغمت فى الطاء ، ثم اجتلبت همزة الوصل للتوصل بها للنطق بالساكن .

(طَآئِرُكُمْ) : سبب شؤمكم . (تُفْتَنُونَ) : تختبرون .

التفسير

٤٥ ـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) :

شروع فى قصة صالح ـ عليه السلام ـ بَعْد الفراغ من قصة سليمان، وقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى ثَمُودَ » معطوف على قوله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » فى صدر قصة سليمان ، وكلتا القصتين وغيرهما برهان على صحة ما جاءَ فى أول السورة من قوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » لأن الحديث عن أحوال الأولين وأخبار الأنبياءِ السابقين ليس مما يعرفه سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاعهد له به .

ومعنى الآية : والله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا يدعوهم إلى توحيد الله، وعبادته ونبذ عبادة ما عداه .

وبدأت بالْقَسَم اعتناءً بشأْن ما اشتملت عليه من أخبار ، وما احتوته من أحوال .

وقوله تعالى : (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) معناه : فتعجلوا العصيان وجنحوا إلى الخلاف والفرقة وفاجئوا بالانقسام إلى فريقين يختصمون : فريق مؤمن مصدق وفريق كافر عاص مما جاءَ تفصيله فى آيات كثيرة فى سور أُخرى ، منها ماجاءَ فى سورة الأعراف من قوله تعالى :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) » إلى آخر ما جاء من الآيات .

والضمير فى « يَخْتَصِمُونَ » للفريقين : المؤمن والكافر ؛ لأنهما شريكان فى الاختصام ، والاختصام وقع بعد الدعوة ، وظهور الآيات وإيمان فريق منهم .

والفاءُ للترتيب والتعقيب ، وهو فى كل شىءٍ بحسبه حتى تتأَتى المفاجأَة بالتفرق والاختصام .

٤٦ ـ (قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) :

قالَ صالح ـ عليه السلام ـ متلطفا مع قومه ، مستميلا لقلوبهم : يا قوم لِم تباكرون وتستعجلون بالمعصية والتكذيب ، أو طلب العقوبة المسيئة لكم قبل التصديق والطاعة ،

أو قبل التوبة التى تعصمكم من العذاب والعقوبة ؟ هلا تبادرون بالاستغفار رجاء أن تنالكم رحمة الله بقبوله توبتكم ، فإن سنته – تعالى – عدم قبول التوبة عند نزول العذاب : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ » ثم قال : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ » وكانوا لجهلهم ، وفرط غوايتهم يقولون : إن وقع وعيده تُبْنا ، وإلا فنحن على ما كنا عليه .

٤٧ – (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالُوا طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ) :

قال الفريق الكافر ردًّا على دعوة صالح لهم : تشاءمْنَا بك وبالذين اتبعوك ، وكانوا معك . فمذ قمتَ بدعوتك أصابنا القحط . وشاعت فينا الفرقة ، واستشرى الخلاف ، قال صالح لهم : سبب شؤْمكم ومصائبكم عند الله وبقَدَره ؛ أو كفركم وعنادكم وسوء أعمالكم المكتوبة عنده .

وأصل التطير : أنه كان من عادتهم إذا خرجوا مسافرين فمروا بطائر زجروه . فإن طار إلى اليمين تيمنوا ومضوا ، وإن مَرَّ بارحا إلى اليسار تشاءموا ورجعوا .

وقوله تعالى :(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) : تعقيب بالحكم عليهم بالعذاب الذى ابتلاهم الله به ، بسبب كفرهم ومعاصيهم ، أى : بل أنتم محكوم عليكم بالفتنة ، أى : العذاب .

(وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(رَهْطٍ) : أى ؛ رجال ، ولهذا وقع تمييزًا لتسعة فإنها تميز بالجمع المجرور ، وأصل

الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، أما النفر : فمن الثلاثة إلى التسعة[١] .

(تَقَاسَمُوا) : فعل أمر بمعنى احلفوا ، أو فعل ماض بمعنى : تحالفوا .

(لَنُبَيِّتَنَّهُ) : لنهلكنه ليلا . (مَهْلِكَ أَهْلِهِ) : أى ، هلاك أهله ، أوموضع هلاكهم .

التفسير

٤٨ - : (وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) :

استمرار فى عرض القصة ، والمعنى : وكان فى مدينة ثمود وهى فى الحجر - كان فيها - تسعة رجال من أشراف قومها وسادتها ، وقيل : كانوا رؤساء وراء كل واحد منهم جنوده وأتباعه ، منهم قدار بن سالف عاقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وقادة الشر فيهم ، يفسدون فى الأرض ، ويأمرون بالإفساد فيها ، ويتتبعون عوْرات الناس ومعايبهم ، يظلمون الناس ، ولا يمنعون الظالم عن ظلمه ، ولا يعملون صالحا ، ولا يدعون إليه ، ولا يعرفون طريقه - فعادتهم الدائمة المستمرة الإفساد البحت الذى لا يخالطه شىءٌ من الصلاح فى عمل أو قول .

٤٩ - (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) :

استئناف مبين بعض ما فعلوا من الفساد ، والمعنى : ومن جملة شرهم : أنهم قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح -عليه السلام- : احلفوا وأقسموا وأكدوا قسمكم لنبيتن صالحا وأهله ، أى : لنهلكنه وأهله بياتا وليلا حتى نتخلص من متاعبه ، أو قالوا - حالفين متقاسمين - هذا القول ، ثم لنقولن لوليه الذى يتولى طلب دمه إذا سألنا - نقول له - : ما شهدنا هلاكه وأهله فضلا عن عدم مباشرتنا إهلاكهم ، ونحلف وإنا لصادقون فى حلفنا حيث لم نباشر إهلاكهم بأنفسنا ولم نشاهده ، أو أنهم باشروه وشاهدوه ، ولكنهم حلفوا أنهم صادقون فى تبرئة أنفسهم ، غير مكترثين بحلفهم وهم فى الحقيقة كاذبون ، والشىء من معدنه لا يستغرب .

---

(١) انظر تفسير أبى السعود .

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(مَكَرُوا مَكْرًا) : دبروا أمرا فى احتيال وخديعة خفاء ، وهو إهلاك صالح وقومه .

(وَمَكَرْنَا مَكْرًا) : جازيناهم بمكرهم من حيث لا يتوقعون .

(دَمَّرْنَاهُمْ) : أهلكناهم . (خَاوِيَةً) : خالية من السكان والأهل ، أو متداعية مهدمة .

التفسير

٥٠ - (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

مكرهم : ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكر الله : مجازاتهم وإهلاكهم ، وسميت المجازاة مكرا للمشاكلة ، كما فى قوله تعالى : « يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » وكما فى قوله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ » وكان صالح - عليه السلام - قد توعدهم بالهلاك خلال ثلاث ليال أهلكهم الله فيها بالصيحة فأصبحوا جاثمين ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه .

والمعنى : ومكر قوم صالح فدبروا فى خفاء إهلاكه وأهله ليلا ، وعلم الله مكرهم فقدر إهلاكهم من حيث لا يشعرون أن الله عالم بتدبيرهم ، ومجازيهم ، ولا يحتسبون وقوع الهلاك بهم .

٥١ - (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى : فتعرَّفْ وتأمل أحوالهم ، وكيف كانت عاقبة ظلمهم وفسادهم وإفسادهم ، لقد

كانت عاقبة ذلك أنا أهلكناهم جميعا تابعين ومتبوعين ، لم يشذ عن إهلاكهم أحد ، ولم ينج فيهم تابع ولا متبوع .

والأمر فى قوله تعالى : « فَانظُرْ » لرسول الله ، أو لكل من يتأتى منه النظر ليعتبر بالحال العجيب التى انتهت إليها عاقبة مكرهم وفسادهم وإفسادهم .

٥٢ - (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

والمعنى : إذا أردت مزيدا من التصديق والاستيقان فتلك بيوتهم ومساكنهم أمامك خالية من الأهل والسكان ، متداعية متهالكة بسبب ظلمهم وإفسادهم ، وسوء تدبيرهم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » الذى حل بهم ، وجرى عليهم من سخط وعذاب لعظة وعبرة لقوم أهل علم وفهم ، أو يعلمون عاقبة الظلم والعصيان .

روى عن ابن عباس أنه قال : أجد فى كتاب الله - تعالى - أن الظلم يخرب البيوت . وتلا هذه الآية ، وفى التوراة : « ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك » وهذا مشاهد كثيرا فى كل عصر ، وحجة الله على الظالمين فى كل جيل .

٥٣ - (وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) : أى وأنجينا صالحا والذين صدقوه وكانوا يتقون المعاصى ويقيمون على الطاعات . - أنجيناهم - من العذاب الذى حل بالكافرين منهم .

روى أن الذين آمنوا بصالح كانوا أربعة آلاف ، خرج بهم إلى « حضر موت » وحين دخلها مات فسميت بهذا الاسم ، وبنى المؤمنون بها مدينة يقال لها : (حاضورا) والله أعلم بصحة ذلك .

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(الْفَاحِشَةَ) : الفعلة الشنيعة المتناهية فى القبح .

(تُبْصِرُونَ) : تعلمون عاقبة فعلها ، أو يبصر بعضكم بعضا علانية أثناء الفاحشة .

التفسير

٥٤ـ (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) :

انتقال من قصة قوم صالح إلى أخبار قوم لوط ـ عليه السلام ـ (ولوطا) منصوب بمضمر معطوف على (أرسلنا) فى صدر قصة صالح ـ عليه السلام ـ داخل معه فى حيز القسم أى : وأرسلنا لوطا ، وقيل : إن (لوطا) منصوب بـ (اذكر) محذوفا .

وقوله : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » ظرف للإرسال ، على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من الأحوال والأقوال .

والمعنى : وأرسلنا لوطا إلى قومه لائما موبخا حين قال لهم : أتأتون هذه الفعلة النكراء المتناهية فى القبح والشناعة ، وأنتم تعلمون مبلغ قبحها وشناعة جرمها وارتكابها ؟ أو وأنتم تعلمون عاقبة العصاة ، ونهاية أمرهم ؟ وقيل : تبصرون ، من الإبصار ، بمعنى النظر بالعيون ، والمعنى : تفعلونها جهارا علانية وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض ، والمراد بالاستفهام فى قوله : « أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ » استبعاد فعلها ، واستنكار ارتكابها .

٥٥ـ (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) :تكرار للكلام عن فاحشتهم لمزيد الإنكار ، وبيان حقيقتها بطريق التصريح بعد الإبهام ، وتصدير الجملة بحرفى التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد ؛ لكمال شناعته وفظاعة مجانته ، فلهذا احتاج إلى تأكيد وقوعه ،وإعادة همزة الاستفهام الإنكارى معه .

والتعبير بالرجال دون الذكور لمزيد التقبيح ، والإشعار بقلب الحقيقة ، وتنكيس الطبيعة ، وتعليل الإتيان بالشهوة تقبيح على تقبيح ، وتقريع على تحكم الشهوة ، وبهيمية الطبع ، وقوله تعالى : « مِن دُونِ النِّسَآءِ » تنبيه إلى مجاوزة الجنس المخصص للشهوة ، المخلوق للاستمتاع ، انقيادًا للنزعات الفاسدة ، وقوله تعالى : (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) : معناه ؛ بل أنتم قوم تفعلون فعل الجهلاء الذين لايقدرون العاقبة ، والسفهاء المعنين فى الفحش والمجانة ، وفيه مزيد من التوبيخ بالإضراب الذى يدل على أنهم أهل جهل يعيشون فيه أيامهم ويتجدد معهم خياتهم .